سيف باردايان



تأليف
ميشال زيفاكو

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

سیف باردالیان

ميشال زيفاكو

سيف باردليان

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

الطبعَة الثانية

- ١ -

الحقيقة

حار بارداليان في امره بعد خروجه من السجن ، وقراءته كتاب (جان دي بيانس) الى الدوق فرانسوا دي مونتمورانسي ، بعد ان تم خطف هذه السيدة المسكينة وابنتها (لويزا) التي كان الشاب يحبها ، ويفدي دمه في سبيلها .

حار فيما يجب عليه عمله بعد ان علم ان والده هو الذي اختطف الطفلة لويزا بامر هنري دي مونتمورانسي نكاية بامها التي لم تبادله حبا بحب وغراما بغرام مصممة على المحافظة على شرفها واخلاقها ، ولو كان في هذا موتها .

واخيرا استقر رأيه على ان يعمل لانقاذ الفتاة وامها مهما وقف من العقبات في سبيله ، وحتى ولو كان سيفارقها بعد انقاذها ولا يراها .

وكذلك استقرت هذه الفكرة في رأسه ، وهو لا يزال يطوف شوارع باريس هائما حائرا ، مطرق الرأس قد تملكه هم مقيم ، وحزن جارف .

وفيما هو في شأنه صدمه شخص كان يركض في الشارع فالقاه ارضا ، فغضب بارداليان ، وجرد سيفه ، يريد معاقبة هذا الوقح .

ولكن هذا لم يتوقف عن الركض وهو يشتم ويلعن ، وقد جمد بارداليان في مكانه ، حين سمع هذه الشتائم التي كانت خاصة بوالده دون غيره من الناس •

فركض خلف الرجل لما ثاب من دهشتم فلم يلحقه ، واختفى عن عينيه بين الازقة والحارات الصغيرة •

وعندئذ قرر العودة الى الفندق حيث تناول طعامه فيه ، ثم ذهب الى قصر الاميرال كوليني لزيارة صديقه العزيز ديودات •

وقد استقبله القوم في القصر احسن استقبال ، ورحبوا به اجمل ترحيب ، لانقاذه حياة ملكتهم ، ولما اظهره من ضروب البطولة والشجاعة في تفريق الثائرين وهزيمتهم ، وقال له تاليني صهر الاميرال :

ــ مرحبا بك من قادم فاني كثير الشوق للتعرف عليك •

وعانقه وضمه الى صدره وهو يقول :

ــ مرحبا بالبطل الذي انقذ ملكتنا •

وقال بارداليان :

ــ حين انقذت الملكة لم اكن اعرف شخصيتها ، وانما كنت اقوم بواجبي نحو كل سيدة تقف موقفها •

واقبل صديقه ديودات يرحب به بحرارة زائدة ، ويتحدث اليه بشؤونه الخاصة ، وكيف انه عاشق متيم ، وكيف انه سيجتمع الى حبيبته مرتين في الاسبوع الواحد لانها في باريس الآن •

فاعترف له بارداليان بحبه ايضا ، وكيف تم خطف حبيبته وامها •

ولم يذكر له انها ابنة الدوق فرانسوا دي مونتمورانسي فوعده (ديودات) بمساعدته في البحث عنها ، وختم حديثه قائلا :

ــ يجب ان نبدأ البحث والتفتيش في ضواحي سجن الباستيل لان الذي خطفها لا بد ان يكون مقيما في هذه الجهات •

ثم دعاه ديودات ليعرفه بالذين يتوقون لمعرفته ، فامتثل بارداليـان ، وذهب معه الى غرفة مجاورة حيث قدمه الى ملك النافار ، والبرنس دي كونديه ، والاميرال كولني ، فرحبوا به جميعا اجمل ترحيب ، وبالغوا في اكرامه ، والثناء على بسالته •

واقبل بعد قليـل المارشال فرانسوا دي مونتمورانسي ، ولما اعلن الحاجب عن وصوله ارتعش بارداليان ، فقد كان هذا والد لويزا حبيبته ، وهو الذي يجب ان يجتمع اليه ليسلمه رسالة زوجته التي خطفت واختفت، ولكن الجميع غادروا القاعة ليخلو ملك النافار بالمارشال •

وكان فرانسوا دي مونتمورانسي في الاربعين من عمره في هذا الوقت وقد اشتهر بالوفاء والاخلاص والشجاعة ، وكان لا يزال يحتفظ في قلبه بحبه الاول لزوجته ، لم يشاركها في حبه سواها ، وكان لا يفتأ يذكرها ، ويود من كل جوارحه لو يعرف مصيرها •

وقد خطر له اكثر من مرة ان يبحث عنها ، ثم شغلته الحروب عن ذلك• ولكن خيالها كان ابدا معه لا يفارقه ولا ينساه •

وكان يشعر في اعماق نفسه بان هناك سرا في حياة زوجته جان ، وانها لا بد ان تكون بريئة مما نسب اليها ، واكد له هذه الفكرة ان والده قال له وهو على فراش الموت :

ــ يجب ان ترى هذه المرأة ••

وهنا انقطع صوت المارشال العجوز فلم يستطع اتمام جملته واسلـم الروح •

وقد عرضت عليه الملكة كاترين قيادة حملة ضد الهيكونوت ، فرفض فرانسوا وقال : انه لا يعتبر الهيكونوت من الاعداء •

فشكت الملكة في اخلاصه ، وارسلت (اليس دي ليكس) خلفه لاغرائه ومعرفة اسراره ، فلم توفق الفتاة معه •

وكان ان تألف حزب في فرنسا يدعو الى السلام والكف عن أراقة الدماء باسم الدين ، واختار اعضاء الحزب فرانسوا ليكون رئيسا له .

ولما علم ملك النافار بسياسته الرشيدة هذه وبعده عن التعصب والفتن دعاه للاجتماع به ، فجاء يزوره كما قدمنا .

وقد اعرب ملك النافار للمارشال عن رغبته في التفاهم معه ، والتفاهم مع الملك شارل نفسه في اجتماع خاص ، بعيدا عن مكايد بلاطه ولو ادى هذا لاختطاف الملك ، لان الغاية تبرر الواسطة .

والغاية هنا من الخطر بالمكان الارفع ، فعليها يتوقف السلام في فرنسا .

ولكن المارشال رفض الموافقة على فكرة اختطاف الملك وقبل بتأييد فكرة التقارب بين الفرنسيين جميعا .

واعلن انه سيدعو الى هذه الفكرة في كل مكان وامام الملك نفسه .

وشكره الملك على موقفه النبيل هذا ، وانتهت عندئذ المقابلة .

وفيما كان المارشال يسير في الرواق تقدم اليه ديودات وسأله ان يسمح له بتقديم احد اصدقائه له فقال له المارشال :

ــ ان صديقك صديقي يا كونت .

فقال ديودات :

ــ اذن اقدم لكم الشيفاليه بارداليان الذي يرغب في مقابلتكم لامر خاص .

فقال المارشال لبارداليان :

ــ سوف اكون غدا في قصري طوال النهار وسأكون سعيدا باستقبالك فيه .

فاعرب عندئذ بارداليان عن رغبته في ان تجري المقابلة في الحال .

فوافق المارشال ، وذهب الاثنان الى قصر المارشال والعرق يتصبب من

جبين الشاب ، فقد حانت الساعة الحاسمة التي سيتوقف عليها مصير حبه وسعادته •

★ ★ ★

وقف بارداليان يتأمل الرسوم في قاعة الاستقبال ، فشاهد فيما شاهد صورة (لويزا) تتصدرها ، فلما امعن النظر فيها ادرك ان هذه لا بد ان تكون امها (جان) •• حين كانت لا تزال شابة فتية •

ودخل المارشال عليه في هذه اللحظة فلما شاهده يتأمل صورة جان قال له :

ـ اكنت تنظر الى هذه الصورة ؟

ـ نعم يا سيدي فانها اجمل صورة لامرأة شاهدتها في حياتي •

ـ وهل تحسب نفسك سعيدا اذا التقيت بمثلها ؟

ـ بل اني احسب نفسي من اسعد الناس اذا لقيت مثلها وجعلتها معبودتي •

فقال المارشال :

ـ اني احس بعطف نحوك ايها الشاب فتعال الى جانبي لاقص عليك قصة هذه المرأة •

واخذ المارشال يقص على بارداليان قصة امرأته جان على انها قصة امرأة احد اصحابه ، وكيف خانت زوجها لما سافر للحرب بعيدا عنها •

فقال له بارداليان بعد ان انهى قصته :

ـ ان صديقك مخطىء يا سيدي •

فظن المارشال ان بارداليان يحاول الدفاع عن النساء كما هي عادة شباب العصر •

فقال له :

ــ دع دفاعك الآن وابحث فيما جئت لاجله •

ــ امرك يا سيدي •• اني اقيم في فندق دفينير ، في شارع سانت دنيس ، وهناك منزل تجاه الفندق ، يعيش فيه كثير من الفقراء ، بينهم امرأتان ، اريد التحدث اليك بشأنهما •• ام وابنتها •

« ولتعلم يا سيدي ، ان هاتين المرأتين على فقرهما وجمالهما، يحترمهما الناس من سكان الشارع كل الاحترام ، وهما يقيمان في هذا المنزل الحقير منذ اربعة عشر عاما ، ينهكان جسميهما بالعمل والتطريز ، ليعيشا بشرف وكرامة •

« وقد ربت الام ابنتها وانشأتها ، كما لو كانت اميرة من الاميرات •

« وانها لكذلك يا سيدي ، فالفتاة قد اخذت حظا وافرا من العلوم ، وتنعم بجمال ، قل ان يضارعه جمال آخر في كل باريس » •

فقال المارشال :

ــ لقد حببت هاتين السيدتين الى قلبي ، فما الذي يجب ان افعلهلهما؟

ــ مهلا يا سيدي •• وهذه الام التي لا يعرف اسمها احد ، تلقب بذات (النقاب الاسود) •

« فهي لم تخلع الرداء الاسود منذ عرفها سكان الحي ، مما يدل على انها اصيبت بنكبة عظيمة •

« ولتعلم يا سيدي ان السبب في نكبة هذه السيدة كان والدي ، وسوف تعرف تفاصيل هذه القصة حين تقرأ هذه الرسالة التي وصلتني بعد اختطاف السيدة وابنتها منذ يومين » •

وقدم بارداليان الرسالة الى المارشال •• الذي ملكته الدهشة لما سمع ، فقد احس من اعماق قلبه ان القصة تهمه ، وانه لا بد ان تكون له علاقة بها •

وفض الرسالة واخذ يقرأها ••

ولحظ بارداليان امارات الحزن العميق التــي ارتسمت على اسارير وجهه وهو يقرأ الرسالة •

ولكن المفــاجأة التي ملكت الشاب كانت اعظم ، وافجــع لما شاهد المارشال يسقط مغمى عليه ، حين انتهى من قراءتها •

واسرع بارداليان ينضح الماء على وجهه ، ويفرك يديه وجسمه ، حتى عاد الى وعيه •

فلما عاد الى وعيه ، اتقدت عيناه ببارق غريب ، مــن الفرح والحزن والرجاء والاسف معا ، والتفت الى الشاب يقول :

ــ انتظرني هنا فسأعود اليك قريبا •

فوعده بارداليان ان يفعل •

غادر المارشال القاعة الى الخارج ، حيث امتطى جواده ، وتوجه الــى احد ابواب باريس ، فطلب من الحرس فتح الباب له بامر الملك ، فعرفوه حالا وفتحــوا له الباب ، فمضى الى (مرجنسي) حيــث كان يقوم بيت المرضعة فيها ، وهو يقول في نفسه :

ــ الا تزال هذه المرأة على قيد الحياة ؟

وكانت المرضع وزوجها ، لا يزالان على قيد الحياة ، وقد فتحت لــه المرضع الباب لما طرقه واعلن عن اسمه ، وهي تقول :

ــ ادخل يا سيدي ، فقد كنت انتظر قدومك يوما من الايام ، وكان كل ما اخشاه ان تصل متأخرا ، وبعد فوات الاوان •

وبعد ان اشعل زوجها المصباح قالت له المرضعة :

ــ لا بد انك قادم لتعرف الحقيقة ؟

ــ نعــم •

ــ اذن تعال معي •

امسكت المرأة بيده واخذته الى غرفة صغيرة ، فيها سرير وكرسي ، وعلى الجدار تمثال العذراء .

واشارت المرأة الى الغرفة وهي تقول :

ـ الى هذه الغرفة جاءت (جان) في اليوم التالي لسفرك .. وفي هذا السرير اقامت اربعة اشهر وهي بين الموت والحياة ، بعد ان قالوا لها انك هجرتها وتخليت عنها .

« وفي هذه الغرفة ، كانت تبكي وتصلي وتطلب من اللـــه المساعدة والعون » .

وركع فرانسوا عند السرير واخذ يبكي .

ولما هدأ روعه مضت المرضع تقول :

ـ ولما انتهت من مرضها اتشحت بالسواد ، ولم تخلعه ابدا .

وتذكر فرانسوا ذات (النقاب الاسود) .

ومضت العجوز تقول :

ـ وفوق هذا السرير ولدت ابنتك لويزا ، وترعرعت ونمت برعايـــة امها ، التي كانت لا تفارق غرفتها ، حتى كان اليوم الذي اختطفت فيــه ابنتها ، فجن جنونها ، وكاد يذهب عقلها .

« وكان هنري شقيقك قد ارسل شخصا لاختطافها ، وجاء يهدد (جان) لما علم بقدومك ، بانه سوف يأمر بقتل فتاتها اذا انكرت ما سوف ينسبه اليها امامك من الخيانة ، فلزمت المسكينة السكوت شفقة على ابنتهـــا ، ومحافظة على حياتها .

« هذه هي قصة المرأة المنكودة ، التي اتهمها شقيق زوجها بالخيانة ، وصدّق زوجها التهمة ، وهي من اعف النساء واشرف الزوجات » .

واكد زوجها رواية زوجتـــه ، وذكر كيف انه شاهد شخصا يحمـــل

الطفلة تحت ردائه ، بينما كان يعمل في الحقل ، ولكنه لم يكن يعلم ان هذه الطفلة هي بنت (جان) ••

وعادت المرضعة تتابع حديثها •

فقالت :

ــ ثم اعيدت الطفلة الى امها ، ولما علمت الام بعد ذلك انك سافرت الى باريس ، سافرت خلفك تحمل طفلتها معها ، وكنت انا كلما زرت باريس ابحث واسأل عنها فلا اقع على مكانها ، فاعود الى قريتي باكية قانطة •

« وكل ما اريده الآن ، وقبل موتي ، ان ابارك الرجل الذي يقول لي ان هذه المسكينة لا تزال على قيد الحياة ، وانها سعيدة هانئة ، قد انصفها الذي ظلمها وخوّنها »

وتأثر فرانسوا لكلام العجوز ، وركع امامها وهو يقول بصوت مختنق :

ــ باركيني يا سيدتي •• واعلمي ان جان على قيد الحياة هي وابنتها، وستكون من اسعد النساء قريبا •

وبعد ان ودع المارشال العجوز وزوجها ، ذهب الى حصن مونتمورانسي القريب من المنزل ، فلما شاهده الحراس دهشوا لقدومه الفجائي ، وحاولوا قرع الاجراس اعلانا لقدومه ، ولكنه منعهم ، وذهب الى مكتبه في الحصن ، حيث كتب على لمجيئه من الاوراق الرسمية، امرا يقضي بأن يكون المنزل الذي تقيم فيه المرضعة العجوز وكل ما يحيط به من الارض ، ملكا لها ولورثتها من بعدها ، وزاد ندى فقدم لها هدية نقدية قدرها ثلاثين الف فرنك صار ارسالها لها في صباح اليوم التالي ، تقديرا للعناية التي صرفتها على زوجته حين مرضت وولدت في منزلها •

ثم نادى وكيل الحصن اليه ، وامره باصلاح القصر وتجهيزه ، ليكون صالحا لسكنى اميرتين ستصلان قريبا •

وفي الليلة نفسها عاد الى باريس ، وقد شغله حزنه على امرأته وما لاقته من الشقاء في سبيله عن كل شيء آخر ، حتى وصل اخيرا الى قصره حيث كان بارداليان ينتظره ، وكان هذا لم يطق نوما في هذه الليلة ، وهو يفكر في الدور القذر الذي لعبه والده فكان سببا في شقاء المرأتين •• وتمزيق عائلة كريمة نبيلة •

وبعد ان التقى الصديقان ، قص المارشال على بارداليان ما فعله في ليلته •

ولما حاول هذا الاعتذار عن الدور الذي قام به والده ، قال له فرانسوا :

ــ اني لا اعرف غير بارداليان واحد ، وهو الذي انقذني من اليأس الذي كنت اعانيه ، فلنكن اصدقاء ، وانا اهنىء والدك بولد مثلك •

واحمر وجه بارداليان عند سماعه هذا الكلام ، ورقت نفسه ، وقال :

ــ اذا كان والدي هو الذي اختطف الطفلة ، فانه ايضا الرجل الذي اعادها الى امها ، بعد ان احس بقذارة الدور الذي كلفه به شقيقك هنري•

ــ لقد عرفت كل تفاصيل القصة من العجوز وزوجها ، فلا عليك ، ويكفي ان يكون والدك قد اصلح ما افسده في اول الامر ، لاكون له من الشاكرين •

ودار الحديث بين الرجلين حول الرجل الذي اختطف جان وابنتها •

وقص عليه بارداليان ، كيف نادته (لويزا) وهو يقف على نافذة غرفته ، وكيف قبضوا عليه وهو في طريقه الى المنزل وذهبوا به الى الباستيل ، ثم كيف خرج منه ، واسرع الى المنزل يسأل عن المرأتين ، وما كان بينه وبين الخادمة من حديث ، وكيف اعطته الرسالة التي كلفتها سيدتها بارسالها له ، وختم حديثه قائلا :

ـ والواقع اني اتهم اثنين الان باختطافها ، الاول الدوق دانجو، الذي شاهدته يحوم مع بعض رجاله حول المنزل .

فهز المارشال رأسه وقال :

ـ اني اعرف الدوق فهو يكره الخطف والاغتصاب خوفا من الفضيحة .

ـ اذا كان الامر كذلك ، فليس هناك غير شقيقك هنري ، فهو صاحب المصلحة الاولى في اختطافها .

فقال المارشال :

ـ قد تكون مصيبا وعلينا ان نذهب الى قصره للتفتيش عنهما قبل اي مكان آخر .

ـ اتركني يا مولاي اتولى البحث بنفسي ، فانت معروف عندهم وهم لا يعرفونني ، وهم اذا رأوك حذروا وخافوا .

فقال المارشال :

ـ صدقت .. واذا نجحت فسأكون مدينا لك مدى الحياة .

واستأذن بارداليان بالانصراف ، وعانقه المارشال شاكرا فرحا .

- ٢ -

الأب وابنه

لقد حدث قبل هذه الحوادث بعدة اسابيع ، وفيما كان هنري دي مونتمورانسي يقضي ليله في فندق خارج باريس ، ان سمع لغطا في الليل ومشادة بين صاحب الفندق واحد المسافرين .

وكان هذا المسافر يريد وضع جواده في الاسطبل ، وصاحب الفندق يمانع بحجة ضيق الاسطبل ووجود ثلاثة جياد فيه .

ولقد اهتز هنري حين سمع صوت المسافر ، وعرف فيه الشفاليه دي بارداليان الكبير الذي كلفه بخطف (لويزا) ابنة اخيه منذ سنوات عديدة، فدعاه اليه وعرّفه على نفسه ، فحذره بارداليان الكبير وخاف شره ، بعد ان اعاد الفتاة الى امها وغادر المنطقة يطوي الارض على فرسه ، خوفا من بطش هنري وعدوانه .

ولكن هنري لم يكن في الواقع يريد الان شرا بالفارس ، وانما كان يريد الافادة من سيفه ، واعادته الى سلطانه .

وقد قال بارداليان لهنري لما اخذ هذا يعاتبه على تركه له ، ورده الطفلة لامها :

ـ لقد كان ضميري يوبخني مدى هذه السنوات كلها ، لارتكاب هذه الجريمة التي كانت بعيدة عن كل شعور انساني •

« وانت يا سيدي الم تندم على هذه الجريمة الشائنة » ؟

فوجم هنري واهتز لما سمع هذا السؤال وقال :

ـ دعنا الان من الماضي ، ودعني من ذكر الاسباب التي دعتك لتركي، ولتعلم اني اعتبرك من الاشراف واحترم حسامك •

« واني مقترح عليك الان اقتراحا ، فان وافقت عليه كان لك كل ما تطلبه من الخير والمال ، وان رفضته افترقنا ، وانصرف كل واحد منا لشأنه » •

فقال بارداليان :

ـ تفضل يا سيدي فحدثني بما تريده •

ـ ماذا تقول بملك فرنسا ؟

ـ ماذا تريد ان يقول رجل معدم مثلي بملك فرنسا ؟

فقال هنري :

ـ اني لا اعتبر شارل التاسع ملكا •

فارتعش بارداليان وقال :

ـ اني لا اعرف جلالة الملك ، ولكني اسمع الناس يقولون انه ضعيف الارادة ، شرير وانه يتعرض للنوبات العصبية التي تجرده من الرحمة ، ومن يكون هذا شأنه يستحيل عليه ان يكسب عطف رعيته وحبها •

ـ اذا كان هذا رأيك فقد اتفقنا •

واخذ هنري يبسط لبارداليان ما يريده ، ويقص عليه كيف انه يسعى مع بعض اصحابه لاجلاس شخص آخر على عرش فرنسا بدلا من هذا الملك الضعيف •• وانه بحاجة الى مثله •

فقال بارداليان :

ـ اذا فانت تريد الافادة من سيفي •• وانا من المـوافقين شرط ان يكون الجزاء متناسبا مع اهمية العمل •

فقال هنري :

ـ سأدفع لك راتبا شهريا قدره خمسمائة ريال تقبضه في كل آخر شهر حتى انتهاء هذه القضية •• فهل يكفيك المبلغ ؟

ـ انه يكفيني •• ولكني اريد شيئا لولدي ؟

ـ ما الذي تريده ؟

ـ اريد مائة الف فرنك تدفع له اذا فشلت المؤامرة •

ـ واذا نجحت ؟

ـ اريد له مركزا في البلاط عند الملك الجديد •

فقال هنري :

ـ اني اتعهد بالمائة الف فرنك من الان ، واما المركز فسأسجله ضمن الشروط التي سأقدمها للملك الجديد •

ورضي بارداليان وتم الاتفاق بين الرجلين على ان يحضر الفارس ليلا الى باريس في الثامن من شهر نيسان ، وان يذهب توا على قصر هنري دي مونتمورانسي •

وكذلك افترق الرجـلان بعد ان اعطى هنري كيسا مليئا بالنقـود لبارداليان الكبير •

★ ★ ★

وفي اوائل شهر نيسان وفيما كان بارداليان الكبير يستعد لزيارة هنري دي مونتمورانسي ليلا ، كما تم الاتفاق بينهما ، وفيما كان بارداليان الصغير يسعى للاجتماع الى فرانسوا دي مونتمورانسي ليناوله رسالة زوجتـه

القديمة ، كان هنري يذرع القاعة الكبيرة في قصره ، يفكر في موقفه بعد ان تمكن من خطف جان وابنتها ، ويحاور نفسه في احسن الطرق للوصول الى قلب الام .. التي كان لا يزال يحبها بعد هذه السنوات العديدة .

ثم مضى يفكر في اخيه فرانسوا ، وما يمنعه من ابلاغه ان زوجته وابنته في قبضته ، فيزيد في عذابه ويأسه .

وقرع الباب في هذه اللحظة ودخل (مورفر) ، احد رجاله يخبره ان شقيقه قد وصل الى باريس وانه شاهده يدخل الى قصره .

فاصفر وجه هنري ، وقال لمورفر :

ـ حسنا دعني الان وحدي .

وما كاد مورفر يغادر القاعة ، حتى بدا الخوف واضحا على وجه هنري واخذ يفكر في مغادرة باريس ، فان وجود شقيقه فيها معناه انهما سوف يلتقيان ، ومتى التقيا ، فلا بد ان يثور شقيقه في وجهه وقد يقتله .

واخذ يفكر في (جان) التي لا يزال يحبها ، والتي اصبح همه الوحيد الان اخفاءها عن اخيه ، لانها قد تعود اليه ما دام لا يزال يحبها وتحبه .

واخيرا استقر رأيه على ان ينقل الاسيرتين من قصره ، ويضعهما عند امرأة يثق بها ويعلم انها لن تخونه .

وذهب الى جان يخبرها بما استقر عليه رأيه ، فاستقبلته قاسية جاهمة .

وامسكت بابنتها كأنها تريد المدافعة عنها .

وحاول هنري التهوين من نقمتها عليه ، فادعى انه انقذها خوفا من خطر كان يهددها ، وانه قرر نقلها من جديد الى مكان امين .

وغادر قصره الى شارع لاهاس ، وطرق باب المنزل الذي دخلته قبله اليس دي ليكس ، وبعد قليل سمع صوتا يقول :

ـ من الطارق ؟

فقال :

ــ افتحي يا لورا •

ففتحت (لورا) الباب وهي تقول :

ــ اهذا انت يا مولاي ؟

ولما فتحت لــه الباب ، دخل هنري ، وطلب مقابلــة اليس ، فترددت (لورا) في اول الامر ، وانكرت وجودها عندها •

ولكن هنري اخبرها انه عارف بوجودها في المنزل ، وانه سينتظرهــا ولو اضطر الى البقاء طوال الليل •

وعندئذ دخلت (اليس) عليه وسألته :

ــ ماذا تريد ايها المارشال ؟

فقــال :

ــ يبدو انك استبدلت بي شخصا آخر ؟

فقالت له ببساطة •

ــ السبب اني عاشقة يا سيدي •

فقــال :

ــ هذا حسن لاني جئت اسألك مساعدة ، لا وصالا ، وهذا الفراق يفيدني ولا يضرني •

وذهلت اليس لما سمعت منه ، ولكنها اصفرت حين سمعت حركــة في هذه اللحظة ، فامسكت بيد (هنري) وادخلته الى غرفة صغيرة ، واقبلت (لورا) تسعى فقالت لها اليس :

ــ اسكتي ولا تتكلمي فقد سمعت وعرفت •

وكانت اليس قــد سمعت صوت اقدام في الخــارج ، وصوت صرير القفل ، فادركت ان خطيبها الكونت دي ماريلياك هو القادم ، فــذهبت

بهنري الى غرفة صغيرة مجاورة ، وعادت الى الغرفة لاستقبال خطيبها ، الذي لما شاهد اضطرابها صاح يقول :

ـ ما الذي بك يا عزيزتي ولماذا كل هذا الاصفرار ؟

فقالت :

ـ لقد سمعت خطواتك فاثر علي الفرح بقدومك .. لقد كنت انتظرك يوم الجمعة واليوم الخميس ؟ لا تزورني غدا كالعادة ؟

ـ كلا .. لاني سأحضر اجتماعا سياسيا خطيرا ، ولهذا جئت لزيارتك هذه المساء ، حتى لا تنتظرينني غدا .

واقبلت (لورا) تقول :

ـ سوف اغادر المنزل لبعض شؤوني ، وسأغتنم وجود الكونت لاترككما معا .

وكادت (اليس) تصيح من الذعر حين لفظت (لورا) اسم الكونت، ولا بد ان (هنري) قد سمع الاسم .. واخذت بيد الكونت وقالت له :

ـ هلم بنا الى الشرفة فان الهواء عليل فيها .

ـ بل نبقى هنا يا عزيزتي ، فليس عندي غير دقائق معدودات ثم امضي في سبيلي ، لان ملك النافار وكوليني ، والبرنس دي كونديه ينتظرونني وهم مجتمعون الان في شارع بيتهيسي .

فقالت في نفسها :

ـ ويلاه لقد باح بسره .. ولا بد ان هنري سمع كل شيء .

ومضى الكونت يقول :

ـ ولتعلمي اننا ننتظر ايضا المارشال فرانسوا دي موتتمورانسي .

وكاد يغمى على اليس لهول ما سمعت ، فصاح الكونت يقول :

ـ ما بالك يا اليس ولماذا كل هذا الاصفرار ؟

ـ لا ادري يا حبيبي .. ولكن يبدو اني منحرفة الصحة .

واقبلت (لورا) في هذه اللحظة ، فودع الـكونت حبيبته وغـادر المنزل •

وسمّرت (اليس) في مكانها لا تدري ما تفعل •

لقد كانت تعلم ان هنري يكره شقيقه فرانسوا •• ولا بد ان يشي به ويتهمه بانه يعمل ضد الملك •• ولا بد ان يذكروا اسم خطيبها بين الاسماء ايضا ، فيقبض على الجميع ، وقد يعدمهم الملك بالتأكيد •

وتمالكت اعصابها ودخلت الغرفة على هنري فاستقبلها هذا قائلا :

ــ لقد سمعت كل ما دار من الحديث •

فجمدت (اليس) في مكانها ، ومدت يدها بحركة لا شعوريـة الـى صدرها •

فقال لها هنري :

ــ اعلمي اني متدرع بدرع من الزرد فلا يصل خنجرك الى صدري ، ولا فائدة لك من محاولة قتلي •• لاني في الواقع لن استعمل الاسرار التي سمعتها ، الا اذا اكرهتني انت على ذلك •• واني اتعهد بنسيان ما سمعته شرط ان تقدمي لي الخدمة التي اطلبها منك •• اني اعرف حبك للكـونت دي ماريلياك •• وساحتفظ به في قلبي ، ولتعلمي اني مغرم مثلك وبحاجة الى مساعدتك •

حدثها كيف انه يحب امرأة اخيه ، وانه قد تمكن من خطفها هي وابنتها بعد ان عثر عليهما ، ويريد ان يضعهما عندها في هذا المنزل ، مقابل سكوته على حبيبها وسرها •

ورضيت اليس بعد تردد خوفا على حياة حبيبها ، ووعدها هنري على الاثر بان يأتي بالاسيرتين في هذه الليلة الى دارها •

فلما اصبحت وحدها اخذت تبكي وهي تقول :

ــ رباه من ينقذني من هذا العار •

وسمعت صوتا يقول :

ـــ انـــا •

واستدارت مسرعة خائفة لتجد امامها الراهب المركيز مانيكارولا اول عشاق (اليس) ، وقد كان مختبئا خلف الباب الذي خرج منه هنري دي مونتمورانسي !•

★ ★ ★

وفي هذه اللحظة ، كان بارداليان الكبير في طريقه الى قصر هنري دي مونتمورانسي ، كما صار الاتفاق بينهما ، وكان مسرعا في سيره ، فاصطدم بشخص لم يتبين وجهه في الليل ، واختلف مع احد حراس القصر ، عنـــد دخوله ، فاتفقا على المبارزة ، وكان هذا يدعى الفيكونت اورنيس ، ولكنه لم يجد (هنري) في قصره ، فدعاه ارنيس للذهاب الى غرفته •

وقال له :

ـــ لقد اخبرني المارشال بان نستقبلك عند وصولك ، وان نذهب بك الى غرفته لتنتظره فيها •

وذهب بارداليان الى غرفته ، واقفلوا الباب خلفه فانزعج وقلق، ولكن النعاس ما لبث ان تغلب عليه فنام ، فلما افاق سمع صوت صرير المفتاح ، فأسرع نحو الباب ، فدخل هنري اصفر الوجه تعبا ، واعتذر لبارداليـــان لاقفال الباب عليه •

وقـــال :

ـــ لقد فعلت ذلك حتى لا تشاهد احدا في هذا القصر يدعوك الـــى تبديل ما صار الاتفاق عليه بيننا ، وثق اني لا اريد الاساءة اليك ، واعدك انك ستكون حرا طليقا في الساعة العاشرة هذا المساء ، والذي اريده منك، انه يوجد عندي كنز في هذا القصر اريد نقله الى مكان آخر ، واريدك ان

ترافق العربة التي سوف تنقله ، وتحافظ عليها في الطريق •• ولسوف يقودها الفيكونت اورنيس ، وتسير انت في المؤخرة ، شاهرا سيفك بيد ، وغدارتك في يد اخرى لتقتل كل من يتعرض لك او يقف في طريقك •

وحاول بارداليان ان يعرف ماذا يوجد في المركبة ، ارجل ام ذهب وجواهر •

ولكن هنري احتفظ بسره ، وقال بارداليان : اغلب الظن ان الملك نفسه قد يكون فيها •

واكتفى الفارس الكبير بما سمعه ، وعاد الى غرفته ينتظر الوقت المعين •

ولما اتوه بالطعام اكل كأنه ابن عشرين ، ثم حمل اليه وكيل المارشال هنري كيس نقود •

وقال له :

ـ هذا راتبك عن الشهر الحالي •

وعد بارداليان المبلغ فوجده يزيد مائة ريال عن المبلغ المتفق عليه فسأل عن السبب فقال له الوكيل :

ـ هذه نفقات السفر •

ولقد حاول بارداليان بعد الاكل ابعاد الخادم الحارس عنه ، واعطاه بعض المال ليذهب الى حانة يحتسي الخمرة بها ، فوعده الحارس ان يفعل في صباح اليوم التالي •

وقال له :

ـ لقد أمروني بان لا افارقك واظل في الرواق حتى الساعة العاشرة •

وعندئذ اغتنم بارداليان فرصة انشغال الخادم فاقفل الغرفة ، واجبره على خلع ملابسه ، وارتداها مكانه ، ثم القاه فوق السرير ، واوثقه وكم فمه •

وخرج من الغرفة ، يريد ان يعرف اسرار القصر الذي كان فيه •

وكان ان وصل في هذه اللحظة رجل عظيم يركب مركبة الى القصر . فادخلوه حالا الى غرفة هنري دي مونتمورانسي ، فلما شاهده هذا خف لاستقبالـه •

وسألـه :

ـ ما الذي حدث •• وكيف اتيت ؟

ولم يكن الرجل غير حاكم الباستيل •

وقد اجاب هنري قائلا :

ـ لقد اتيت لاقابلك ، ان شخصا غريبا قد عرف سرنا •

وكان بارداليان الكبير قد وصل في طوافة في القصر الى امام باب هذه الغرفة التي كان يتحدث الرجلان فيها •

توقف ليستمع الى الحديث الذي كان يدور بينهما ، واشتد اهتمامه وانصاته لما سمع اسم بارداليان ••

وقد اخذ حاكم الباستيل يقص على هنري قصة بارداليان الصغـير وكيف دخـل الى السجن ثم خرج منه بعد ان هـدده بكشف سره وسر جماعته للملك •

وبعد انّ قص حاكم الباستيل على هنري ، تفاصيل قصة بارداليان في السجن وخروجه منه ، قال هنري :

ـ يجب ان يكون هذا الرجل معنا ، فانه يفيدنا فائدة عظيمـة •• والان فاذهب ايها الصديق ولا تقلق •• فلسوف اتدبر امر هذا الفتى •

ـ هل تعرفـه ؟

ـ لا •• ولكنني اعرف شخصا يعرفه •• وسيكون بارداليان الصغير في قبضة يدي اليوم او غدا •

ـ لقد ازحت عن صدري كابوسا بوعدك هذا ، فاذا قبضت عليه فابعثه اليّ فان لي حديثا معه •

ـ سوف افعل •

وغادر حاكم الباستيل القصر مرتاح البال ، فيما عاد بارداليان الكبير الى غرفته فاعاد ثياب السجين اليه ، وارتدى ثيابه ، ثم اعطى الحارس مائة ريال وحذره من التحدث بشيء مما جرى بينهما •• فوعده الحارس ان يفعل •

فقال له بارداليان :

ـ وعليك الآن ان تذهب •• لتقول لوكيل القصر اني قد صحوت من نومي •

وما كاد يخلو بارداليان الكبير الى نفسه حتى اخذ يفكر في الخطر الذي يهدد ابنه •• فلم يعد يكترث بسر المارشال ، ولا بالعمل عنده •

لقد اصبح همه ابنه ، وعليه ان يعمل لانقاذه ، وان يتصل به ليحذره من الخطر الذي يهدده •

واقبل هنري في هذه الاثناء ، فاعلن له ان مهمته تنتهي بعد منتصف الليل •

وسأله عن ابنه وهل هو ممن يحسنون القتال والحرب ، فضحك بارداليان وقال :

ـ انه اذا لم يجد من يقاتله في اليقظة ، قاتله في احلامه •

ـ اذن جئني به فانا بحاجة الى امثاله من الرجال ، وكلما كثر عددنا ، كانت العاقبة اسلم وآمن •

فوعده بارداليان ان يفعل •

وغادره هنري لشأنه •

وقال بارداليان الكبير لنفسه : انه ينتظر ان آتيه بابني ، واذن فهو

لن يفعل شيئا ضده في هذه الفترة ، خصوصا وهو لا يعرف مقره، ولسوف اتصل بابني بعد انتهاء مهمتي واحذره ، ثم نرى ما يكون بعد ذلك .

وفي الساعة العاشرة ركب بارداليان جواده ، بعد ان انذره الفيكونت اسبرمونت ليتأهب ويسير خلف المركبة لحراستها ، وقام الفيكونت نفسه بقيادة المركبة ، التي اتجهت نحو شارع هانسي .

فلما وصلت الى منعطف احد الشوارع سمع بارداليان صوت رصاصة، صدرت من غدارة بالتأكيد ، فصاح هنري :

ـ الى الامام ..

ولم تصب الرصاصة غير قبضة الفيكونت الذي مضى على توه يسوق المركبة مسرعا .

واما بارداليان فلما سمع الطلق الناري ادار وجهه حوله ليرى من المعتدي ، فشاهد رجلا يسرع خلف المركبة فاسرع بذوره نحوه ، وطعنه بحسامه ، فحاد المجهول عن الطعنة .

وعندئذ اشتبك السيفان ، وادرك بارداليان الكبير بعد قليل ان الذي يقارعه ليس فارسا عاديا ، وانما هو بارع في حمل السيف ، فنان في طرق الدفاع ، فراح يناور خصمه حتى يشغله عن اللحاق بالمركبة ، بينما كان هم خصمه القضاء عليه ليلحق بالمركبة .. ولهذا حمل على بارداليان الكبير حملة منكرة ، وهو يقول :

ـ خذها فانها القاضية .

وعرف عندئذ بارداليان الكبير في خصمه ابنه ، عرفه من صوته ، فصاح :

ـ ولدي ..

فتوقف بارداليان الصغير عن الهجوم وصاح :

ـ ابي ..

وضاق صدر بارداليان الاب في هذه اللحظة من ابنه وتعرضه لما لا

يعنيه ، وتجاهله لنصائحه .

فأجابه ابنه :

ــ ان تدخلك في هذه القضية قد قتلني وقضى عليّ .. فالوداع يا ابي لاني لا اطيق ان اراك مع اعدائي .

وبكى الاب لما سمع هذا الكلام .

وقال :

ــ رباه اتفارقني .. بعد ان وجدتك .

وحاول الانتحار ، فمنعه ابنه ، وتعانق الاب وفتاه .

وقال الابن :

ــ لنذهب الى الفندق حيث تتحدث .

ــ واين تقيم الآن ؟

ــ في فندق دفينير .. حيث تركتني .

ــ لقد اصبح هذا المكان يشكل خطرا عليك .

وحدثه بما سمعه من حاكم الباستيل ، واخذه الى خمارة خاصة،حيث حدثه الابن بانه كان يحرس جان وابنتها التي اختطفها وهي طفلة ، وان هنري لا يزال يكيد لزوجة شقيقه ، ومن المؤسف ان يشارك والده في مثل هذه المأساة الظالمة .

وتأسف بارداليان لما عرف بالحقيقة ، ولما سأله ابنه فيما اذا كان يعرف اين ذهبت المركبة ، اجابه بالنفي ، لان هنري كان شديد الحذر ، لم يتحدث بخطته الى احد .

فقال بارداليان :

ــ اذا كان الامر كذلك فعلي ان اذهب الآن الى قصر فرانسوا دي مونتمورانسي لاحدثه بما وقع لنا .

« وعليك انت ان تذهب الى الفندق وتأتي لي بكلبي منه فقد احتاج اليه » .

- ٣ -

باردليان في خطر

اهتاج فرانسوا دي مونتمورانسي هياجا عظيما لما قص عليه بارداليان، كيف نقل شقيقه هنري زوجته وفتاته الى مكان آخر غير قصره ، وضم قبضته متوعدا حانقا ثائرا ، فمضى الشاب يهدىء من روعه ، ويقول له :

ــ عليك ان تتمالك اعصابك لاننا بحاجة الى الحيلة لمعرفة المكان الذي نقلت اليه الاسيرتان .. ولسوف اعرف مكانه قريبا ، فلا تقلق ولا تقنط .

فقال فرانسوا :

ــ ولكني لا اطيق على هذه الحالة صبرا .. فهل انت مستعد لتعيد ما رددته امامي امام الملك ؟

ــ بالتأكيد .

ــ اذا هيا بنا الى اللوفر فاذا لم ينصفني الملك من شقيقي الخائن كان لكل حادث حديث .

لما اصبح الصباح ركب الصديقان مركبة فاخرة ذهبت بهما الى اللوفر، بعد ان ارتدى فرانسوا احسن ملابسه ، وجلس امامهما اربعة غلمان من حاشية القصر بالملابس الحريرية البيضاء وعلى صدورهم شارة آل

مونتمورانسي ، فيما راح يحرس المركبة اثنا عشر فارسا من اتباع المارشال.

وكان الملك في هذا اليوم قد جلس لاستقبال الزائرين ، في غرفة جديدة للسلاح انشأها حديثا في القصر ، ولها نافذة كبيرة تطل على نهر السين ومعه بعض النبلاء ، يفحص بندقية جديدة .

فلما وصل المارشال الى القصر اذن الملك له بالدخول حالا ، بعد ان جلس على كرسيه الكبير ووقف النبلاء حوله .

وقد ذهل الملك في اول الامر لقدوم المارشال لان هذا كان لا يزور القصر الا لماما ، فرحب به واكرمه ، لانه كانت تعجبه منه مظاهر نبله .

وكذلك النبلاء الاخرون كانوا يقدرون المارشال ويحترمونه الا الدوق دي كيز الذي كان يكرهه ، لانه لم يكن من اتباعه وانصاره .

وطلب المارشال اجتماعا خاصا مع الملك ، ووافق جلالته ، وانسحب الحاضرون ، وبينهم الدوق دي انجو والدوق دي كيز وكان موقف بارداليان حرجا ، فقد شاهد الدوق دي انجو شقيق الملك ، وشاهد (مورفر) و (كوليس) ، وابتسم للاخرين باحتقار .

واهتاج حقد (مورفر) لما شاهده ، بعد ان جرحه بارداليان في خده ، وتقدم منه يهدده ويقول :

ــ سوف نلتقي .

فاجابه بارداليان ببرود :

ــ في الوقت الذي تشاء .

واقترب عندئذ كوليس ومورفر من الدوق دي انجو وتحدثا اليه ، فنظر هذا الى بارداليان نظرة حقد ووعيد ، فادرك بارداليان انهما قد حدثاه بانه هو الذي هاجمهما حين حاولا اقتحام منزل جان وابنتها .

وقال بارداليان لنفسه :

ـ اني سجين في الحالتين •• فاذا لم ترني الملكة فقد شاهدني الدوق دي انجو •• وهو سيرسلني الى الباستيل بالتأكيد •

ولما خلت القاعة من النبــلاء ، طلب فرانسوا من الملك ان يستدعـ ي شقيقه ، ففعل الملك •

ولما حضر اتهمه فرانسوا بانه خطف زوجته وابنته ، وطلب مــن الملك ان يأمره باعادتهما اليه •

وقص على الملك قصة المرأتين وكيف انهما يعملان في التطريز ويقيمان في شارع سانت دنيس ، وصفق الملك وقال :

ـ لقد عرفت الام •• فهي امهر مطرزة في باريس •

وكان الملك قد تذكر ان الام هي التي تقوم بتطريز ثياب حبيبته ماري توشيت •

ولما شاهد الملك ذهول فرنسوا لمعرفته بهذه المرأة ، قال له :

ـ لقد احتجت مرة لسيدة ماهرة في التطريز ، فأرشدوني اليها •

وعندئذ اخذ فرانسوا يقص على الملك قصة هذه السيدة ، والـدور الذي لعبه شقيقه ضده ، فاتهمهــا بما هي براء منه ، حتى طلقهــا وتزوج سواها •• وحتى راحت تعمل بالتطريز لتعول نفسها وفتاتها •

ثم ما حدث اخيرا من خطف شقيقه لها ولابنتها ، ووضعهما في مكــان مجهول •• وقد جاء اليوم يطلب من جلالة الملك ان يسأل شقيقه عما فعله بالسيدتين ، جان دي بيانس وابنتها لويزا •

والتفت الملك على الاثر ينظر الى هنري كمن يريد منه جوابا عــلى التهمة التي وجهها شقيقه له •

وكان هذا قد قرر فيما بينه وبين نفسه ، الانتقام من اخيه ، حتى ولو ادى الى ذلك شنقه •

فقال يجيب على سؤال الملك :

ـ وانا التمس من جلالة مولاي الملك ان يسأل حضرة المارشال عن قصر كان فيه في شارع بيتهيسي ، ومن كان معه في ذلك القصر •• وما دار بين الحضور من حديث ؟

وكان هنري طبعا يعني اجتماع فرانسوا الى ملك النافار ، ثم الى اجتماع آخر حضره رجال بلاط ملك النافار ، وقد عرف بذلك الاجتماع من حديث (ديودات) الى خطيبته اليس دي ليكس كما مر قبلا •

فاصفر وجه فرانسوا •• وادرك الخطر الذي يتهدده ، وقال لاخيه بصوت خفيض لم يسمعه الملك :

ـ يا لك من شقي ساقط •

فقال هنري :

ـ يبدو ان حضرة المارشال ، لا يريد الاجابة على سؤالي ، ولكني مستعد لان اقدم الجواب بدلا منه •

وكان ان تقدم بارداليان في هذه اللحظة •

وقال :

ـ لقد اتيت شاهدا ، ولا بد لي من الكلام اذا سمحت يا صاحب الجلالة •

فغضب هنري وصاح به :

ـ من انت لتجسر على مخاطبة الملك قبل ان تسأله ؟

ـ ليس يهمك معرفة اسمي يا حضرة المارشال في الوقت الحاضر ، كما لا فائدة من سؤالك عما جرى في شارع بيتهيسي ، اذا كنا لا نذكر ما جرى قبل ذلك في شارع سانت ديفنير •• في تلك الصالة التي يجتمع فيها الشعراء عادة •

واهتز هنري لما سمع هذا الجواب ، وغض بصره ، وحار في امره • وصاح الملك :

ـ ما هذه الالغاز ؟•
فتدخل بارداليان يقول :
ـ لا شيء يا سيدي سوى اني اردت لفت نظر المارشال الى ان سؤاله، بعيد عن الموضوع الذي نحن بصدده •

فالتفت الملك يسأل هنري :
ـ احقا ان سؤالك لا علاقة له بالقضية ؟
فتنهد هنري تنهد اليائسين وقال :
ـ نعم مولاي •
فنظر فرانسوا ممتنا شاكرا ان انقذه من هذا الحرج
وادرك هنري ان عليه انقاذ رأسه وتسوية موقفه ، بعد ان انفضح امره •
فقال للملك :
ـ والواقع ان بعض الشعراء يجتمعون في ذلك الشارع ، ويحضر الاجتماع بعض السيدات •• كما يحضره ايضا بعض اصحاب الملابس الحريرية •

وفطن الملك الى ما يريده هنري من ان بعض النبلاء اصحاب الملابس الحريرية يحضرون هذه الاجتماعات للعبث واللهو ، فانبسطت اساريره ، واعتقد ان كل واحد من الاخوين •• يحضر هذه الاجتماعات ، وينصرف الى شيء من العبث واللهو ، ولهذا يريد الآن كل واحد منهما ان يفضح الآخر •
واغتنم فرانسوا تبدل الموقف وعاد يطلب من الملك انصافه ، واعادة زوجته اليه •• وقال :
ـ ان بارداليان قد اقام متخفيا في قصر اخي يوما ونصف يوم ، وقد شاهد ورأى اشياء كثيرة في هذا القصر فليسأله الملك ليعرف الحقيقة •

فأمر الملك بارداليان بالكلام •
وتقدم الشاب وحنى رأسه امام الملك ثم قال :
ـ ليأذن مولاي لي بسؤال الدوق كيف ابدأ قصتي •
هل ابدأ بقصة المركبة التي خرجت من القصر سرا في الساعة العاشرة •• ام ابدأ بذلك الزائر الذي زار المارشال في الليل ليحدثه بامري انا بارداليان •

وارتعش هنري لما سمع هذا الكلام ، وايقن ان بارداليان قد سمع حديثه مع حاكم الباستيل ، وشاهد المركبة تغادر القصر ، ولكنه تمالك نفسه وقال :
ـ ابدأ من حيث تشاء •
وقبل ان يبدأ بارداليان حديثه دخلت كاترين ام الملك وتركت الباب مفتوحا خلفها وشاهد بارداليان على عتبته الدوق دي انجو ومورفر وكاليس وتانسي قائد الحرس ، ومعه عشرة من الحراس ، فادرك الخطر الذي يهدده وثبت في مكانه ليرى ما يكون •

وغضب الملك لهذه المفاجأة وقال :
ـ لقد اذنت للمارشال فرانسوا دي مونتمورانسي بمقابلة خاصة، فلا يحق لاحد والحالة هذه ان يدخل عليّ •
فأجابته كاترين باسمة :
ـ اعرف ذلك يا بني ، ولولا ثقتي بان دخولي سيرضيك لما فعلت •• لقد اتيت لاخبرك انك بحضرة عدو لامك وعدو لاخيك ، وعدو لك •
وتنفس هنري الصعداء وايقن انه نجا من الموقف الحرج الذي كان يقفه •
ونظر الملك يبحث عن هذا العدو •
وقال لامه :

ـ ومن هو هذا العدو ؟

ـ لقد تجاسر هذا الرجل على اهانة شقيقك الدوق ورفع سلاحه في وجهه •

ـ ما اسم هذا الرجل ؟

ـ انه هذا الذي يدعى بارداليان ؟

فصاح الملك بحراسه ليقبضوا عليه •

وكان بارداليان قد استعد لهذه المفاجأة ، فامتشق سيفه بسرعة البرق، وضرب به اول المهاجمين ، وكان كاليس ، فاصابت الضربة خوذته فسقطت عند قدمي الملكة •

وعندئذ جرد الحراس سيوفهم وهجموا عليه جميعا ، فتراجع بارداليان الى النافذة ، وهو يقول :

ـ الى اللقاء ايها السادة •• ووثب من النافذة الى النهر •

وكان لفرار بارداليان تأثير عظيم على الحاضرين ، وكان اشدهم اسفا على فراره •• الملكة التي كانت تريد الانتقام منه ، واكثرهم فرحا ، الدوق دي كيز ، الذي اخذ يقول في نفسه :

ـ انه بطل الجسر ، وعدو الملكة ، وعدو الدوق دي انجو ، وقد رفض ان يكون في خدمتي ، ففي خدمة من يريد ان يكون ؟

وصاح الملك غاضبا بعد فراره ، يأمر حراسه بالقبض على بارداليـــان وارساله الى الباستيل •

وعمد الجميع في هذه اللحظة الى الانتقام من المارشال فرانسوا دي مونتمورانسي ، فاخذوا يقولون : يبدوا ان المارشال لا يختار اصدقاءه الا من بين اعداء الملك •

وادرك المارشال انه اصبح مغلوبا على امره بعد فرار بارداليان •

وغادر الاخوان القصر وفرانسوا يهدد شقيقه ، وهنري يقـول لـه ساخرا :

ــ ان عندي سلاحا سوف استخدمه عند الحاجة •

* * *

وادرك فرانسوا انه يعني بهذا زوجته وابنته السجينتين عند شقيقه ، فاستبد به اليأس ، وهو لا يدري ما يفعل •

لقد كان الماركيز دي بانيكار الذي عمل راهبا بعد الفشل الذي اصيب به في حبه لاليس دي ليكس يعيش في دير مشهور في جبل سانت جنفياف •

وكان في هذا الدير طفل صغير في الرابعة من عمره ، يعني بـه هـذا الراهب عناية خاصة ، وكان يدعى جاك كليمانت •

وكان بانيكار بالتأكيد لا يزال يحب (اليس) ويهواها •

وكان كثيرا ما يدور حول المنزل الذي تسكنه ليلا ، وقد جاء في الليلة التي زارها (ديودات) خطيبها ، وشاهده يقبلها وتقبله ، وهـو مختبىء خلف الباب ، فضاقت الدنيا في وجهه •

ولما عادت (اليس) الى غرفتها وخلت لنفسها ، صاحت تقول :

ــ رباه من ينقذني من العذاب ؟

فاجابها صوت الراهب من خارج الغرفة :

ــ انـا ••

وذعرت الفتاة لهذه المفاجأة ، ولما شاهدته ظنت ان الرحمة قد تسللت الى قلبه ، وانه قد تمكن من انتزاع كتابها من الملكة ، وانه لا بد قد اتى ابرده اليها •

سألهـا :

ـ من هذا الرجل الذي غادر المنزل على التو ؟
فابتسمت (اليس) •• وادركت ان الراهب ما يزال يحبها ، وان الغيرة تعذبه ، فقررت الافادة منه وقالت :
ـ انه المارشال دي دامفيل •
فلما بان الغضب على وجهه قالت له :
ـ كن كريما •• ان شقائي هائل يا كليمـانت ، اتريد ان تعرف مـا يريده مني هذا المارشال ؟
وبدا الاضطراب على وجه الراهب وقال لها :
ـ لقد جئت للاتفاق معك يا اليس •• وقد رأيت ولدنا اليوم •
ارتعشت اليس وقالت :
ـ دعني اراه واضمه الى صدري •
ـ انه يعيش في الدير •
ـ ولكن الاديرة كثيرة •• وهي مقفلة الابواب كالحصون ، فكيف السبيل اليها ؟
فقـال :
ـ لقد رأيته اليوم يا اليس ، فتعذبت حين سمعته يسألني عـن امه وابيه ، وكيف لا يكون له ام واب كسائر الاطفال ؟ اتريدين ان تشاهدي ولدنا يا اليس ؟
وضمت الام يديها الى صدرها وقالت :
ـ انك اذا فعلت كنت من رجال الله الصالحين •
فقـال :
ـ اني اطمح في اكثر من ذلك •
وحدثها بانه لا يزال يحبها ، وانه لا يستطيع العيش بدونها •
وقد حاول ان ينساها فلم يوفق ، وعرض عليها الخروج مـن هـذا

الجحيم الذي تعيش فيه ، وان يسافرا معا الى ايطاليا حيث يملـك ارضا وثروة محترمة ، تمكنهما من العيش على احسن ما يكون •

ورفضت اليس اقتراحه ، واخبرته انها تحب (ديودات) وانـه ليس عشيقها ولكنه خطيبها ، وانها لـو اكرهت على الاعتراف له بجرائمهـا لفعلت ، وليكرهها بعد ذلك ويحتقرها فليس يهمها الامر ما دامت ستموت في هواه •

قالت ذلك وعيناها تبرق كمن اصابتها مسة من الجنون •

ووقف الراهب امامها حائرا ينظر اليها بعينين لا تـدلان على غضب ولا كره •

ثم تنهد وغادر المنزل ، بعد ان قطع الامل منها •

ــ ٤ ــ

حديث على المائدة

ذهب بارداليان الكبير بعد انصراف ابنه من الحانة الى قصر هنري دي مونتمورانسي ، فوجد هذا بانتظاره ، فسأله تفصيل ما وقع له مع الرجل الذي حاول الاعتداء على المركبة .

فروى له بارداليان كيف طارده حتى تمكن منه وقتله ، وكان ان ابتعد بعد ذلك عن طريق المركبة ، فلم يعد يستطيع اللحاق بها .

وسر هنري لما عرف ان الرجل المجهول قد مات ، وان بارداليان لا يعرف المكان الذي وضع فيه الاسيرتين .

وقال له :

ــ لقد خدمتني يا بارداليان اعظم خدمة ، وسيدفع لك وكيلي المكافأة التي تستحقها ، تقديرا لبطولتك وحسن خدمتك .

حنى بارداليان على الاثر رأسه شاكرا ، وسأل المارشال فيما اذا وصل الكنز سالما الى مكانه ، فاجابه بالايجاب ، وان الفضل في هذا يعود له وللفيكونت اسبرمونت الذي كان يقود المركبة .

ثم ذهب الى غرفته لينام ، فلما صحا من رقاده ، وسأل عن المارشال ،

قيل له انه ذهب الى اللوفر لمقابلة الملك ، فقرر الذهاب الى الفندق لجلب كلب ابنه .

فلما وصل اليه وجد الناس يأكلون حول الموائد المختلفة ، ولم تكن هناك مائدة فارغة ، غير واحدة اعدت لاربعة اشخاص فجلس عليها .

فاعترضته الخادمة بان هذه المائدة مجهزة لاربعة اشخاص سوف يأتون حالا ، فرفض ترك مكانه .

واقبل رئيس الخدم ، فلما شاهد بارداليان احتفى به واكرمه .

وعرف صاحب الفندق بمجيئه ، فاخذ يبكي من الحزن خوفا من ان يكون قد قرر الاقامة في فندقه هو وابنه ، ولكنه تمالك نفسه ، واقبل يسلم عليه ويرحب به خوفا من شره .

فسأله بارداليان :

ـ مالي أراك محمر العينين ؟

فقال صاحب الفندق :

ـ من شدة الفرح بقدومك يا سيدي .. وارجو ان تطول اقامتك عندي .

ـ كلا ايها الصديق ، فاني عابر سبيل ، وقد جئت لادفع لك دينك القديم ، بعد ان اخذ الذهب يهطل علي مدرارا .

ثم سأله :

ـ من يكون اصحاب هذه المائدة ؟ فأخبره ، صاحب الفندق .. انها للفيكونت اسبرمونت واصدقائه .

فقال بارداليان وقد لمعت عيناه :

ـ اذا الافضل ان تنقل طعامي الى هذه الغرفة المجاورة التي تحجبني عن الناس بهذا الستار ، فاني افضل ان آكل وحدي .

وكان غرض بارداليان ان يسمع كل ما يدور بين اسبرمونت واصحابه،

لعله يعرف سرهم ، وما يقولون •

واقبل بينو كلب بارداليان الصغير يهز ذنبه ، فقدم له بقايا الدجاجة والطيور التي كان يأكلها ، فانشغل الكلب بطعامه •

وجاء في هذه اللحظة الفيكونت اسبرمونت ومعه اثنين من اصدقائه •

فسأل الفيكونت عن كيرسي •

فأجابه احدهما :

ــ انه لم يحضر •

وفي هذه اللحظة اقبل كيرسي ، وكان من الزعماء الاربعة الذين كانوا يقودون الشعب يوم حادثة الجسر ، ومحاولة قتل ملكة النافار •

وصاح وهو يأخذ مكانه :

ــ لقد كنت في اللوفر ، وهذا هو سبب تأخري •

سأله احدهم :

ــ ما الاخبار الاخيرة ؟

فقال :

ــ لقد راح الملك يحاول كما بدا لي التوفيق بين فرانسوا دي مونتمورانسي وشقيقه فرفض الثاني ، وكنت اقف على الباب فلم اسمع كل الحديث •

وحدث ان اقبلت الملكة كاترين في هذه اللحظة ودخلت على الملك بدون استئذان ، وتركت الباب مفتوحا ، فوقفنا كلنا على عتبة الباب ، نسمع ونشاهد ما يجري ، فاشارت الملكة الى فتى كان مع فرانسوا دي مونتمورانسي ، واتهمته بانه اهانها واهان ابنها الدوق دانجو •

غضب الملك عندئذ غضبا شديدا ، وامر بالقبض على هذا الشاب •• الذي لم يكن غير بارداليان •

فوقف الفيكونت معترضا •

وقــال :

ــ كيف تقول بارداليان ؟

وكان بارداليان الاكبر قد وقف في مكانه يستمع الى الحديث ، وقد انخلع قلبه خوفا على ابنه •

فأجابه كيرسي :

ــ هذا هو الاسم الذي سمعتهم يسمونه به •

ــ ولكن بارداليان رجل كهل وسأتبارز معه •

فقال كيرسي :

ــ ان الرجل الذي اتحدث عنه شاب ، كان مع المارشال فرانسوا دي مونتمورانسي •• ولا بد انه يوجد اثنان بهذا الاسم ••

« والخلاصة انه حين صدر امر الملك بالقبض على هذا الشاب هجم الجميع عليه •• وفي مقدمتهم كاليس ، فضربه بارداليان بحسامــه ضربة اطارت قبعته ، وجرحته في رأسه ، ثم وثب الى النافذة القريبة والقى نفسه بالنهر ، وتوارى عن الانظار •

فخرج مورفر بسيفه ومعه بعض الجنود ، ولكنهم لم يعثروا عليــه حتى الآن •

★ ★ ★

حين بلغ كيرسي في قصته الى هذا الحد ، فتح باب الغرفة القريبة بعنف، وخرج منه بارداليان ، فوقف الاربعة مذعورين ، فطلب منهم بادراليان في لطف جم ، ان يفسحوا له طريقا ليمر منه •

وكانت مائدة الاربعة تقف في طريقه ، وصاح الفيكونت بذهول :

ــ بارداليان •

ووقف الباقون على الاثر يتأملونه حين سمعوا اسمه ، وصاح بارداليان يقـول :

ــ ألم اقل لكم اني مستعجل ؟

ولما لم يتحرك احد من مكانه ، رفس الطاولة برجله فالقاها ارضا ، بما فيها من الاشربة والاطعمة ، فوثب الفيكـونت الى سيفه ، واطبـق الخصمان الواحد على الآخر .

فلما اصيب بارداليان في يده اليمنى نقل حسامه الى اليسرى ، ومـا لبث ان اصاب خصمه في كتفه فجرحه واسال دمه ، وغادر الفندق لا يلوي على شيء ، فتبعه كلب بارداليان الصغير (بيبو) .

وقد ذهب بارداليان الكبير لتوه الى الخمارة المتواضعة التي كـانت تتولاها امرأة صديقة له ، تدعى (كاتي) .. فلما شاهدت جرحه اسرعت لتضميده ، فسألها عن ولده ، فاخبرته انه لم يعد بعد ان غادر الخمارة .. فاقام ينتظره .

وكان بارداليان الصغير قد ذهب لتوه بعد ان هرب من اللوفر الـى قصر فرانسوا دي مونتمورانسي فلما لم يجده انتظره .

فلما عاد المارشال الى قصره ، ضم الشاب لصدره وهو يقول :

ــ لقد انقذت حياتي وحياة اصدقائي بذكائك وتدخلك في الـوقت المناسب .

وسأله عن سبب غضب الملكة عليه .

قـال :

ــ لاني رفضت ان اقتل صديقا لي يدعى الكونت دي ماريلياك .. كانت تريد قتله والقضاء عليه ، ولا ادري سببا لذلك .

« واما الدوق دي انجو فقد اهنته لاني شاهدته امام منزل (جـان) زوجتك مع بعض انصاره يريد اقتحامه » .

ــ لا اظن ان شقيق الملك هو الذي خطف زوجتي وابنتها •• هــل ستغادر باريس ؟

ــ لانهم سيطاردونك •• حتى يظفروا بك ويقضوا عليك •

ــ لست بفاعل ، وليفعل اعدائي ما يريدون •• واذا فقدت حياتي ، فلن ابالي ، فليس لحياتي قيمة في نظري •

وايقن المارشال ان للشاب سرا يكتمه ليجود بنفسه ، ويعرض حياته للخطر ولا يبالي •• ولا بد ان سبب هذا غرام لا رجاء فيه •

ولكنه كتم ما في نفسه ، ولم يحاول احراج الشاب وسؤاله •

وهنا سأله بارداليان عما جرى في القصر بعد هربه ، فاخبره ان شقيقه انكر ان تكون له علاقة بخطف جان وابنتها •

وقد استطاع الانكار طبعا ، لان احدا لم يكن هناك ليكذبه •

ولتعلم اني امهلت اخي اياما ثلاثة ، ثم اذهب اليه فاقتله او يقتلني •

واخيرا طلب منه المارشال البقاء في قصره ، فاعتذر لاضطراره الــى البقاء مع والده ، وغادر القصر الى الحانة للاجتماع اليه •

وفي الطريق شاهده (مورفر) فلم يجرأ على القبض عليه بمفــرده ، واخذ كلما شاهد جنديا في طريقه دعاه لمساعدته •

فلما وصل بارداليان الى الحانة ، طوق مورفر الحانة برجاله ، ولكن الاب وابنه تمكنا من الفرار من قبو يقع تحت ارضها ، بعد ان حرقا الحانة كلها ، وبعد ان قضيا على بعض الجنود •

وعاد مورفر بعد حريق الحانة الى القصر بمن بقي معه من الجنود ، وهو يظن ان بارداليان قد قتل في الحريق ، وحمل الخبر الى الملكة كاترين فسرت به واثنت عليه •

★ ★ ★

وكان بارداليان الكبير وولده بعد ان تمكنا من النجاة من الخمارة ، قد دفعا (لكاتي) صاحبة الخمارة ما معهما من المال لبناء خمارة جديـدة مكان خمارتها ، فرفضت هذه في اول الأمر ان تأخذ شيئا من هـذا المال بحجة ان بارداليان وولده بحاجة اليه في الوقت الحاضر .

ولكن الرجلان اكرهاها على اخـذ المبلغ ، تقديرا لبسالتها وعطفهـا عليهما .. فقبلته مكرهة .

ومضى الرجلان يجوبان شوارع باريس ، والولد يحاول ان يحمـل ابنه على مغادرتها ، والابن يمانع ويعارض ويقول :

ـ هذا مستحيل .

ويصيح الوالد قائلا :

ـ ما هذا الكلام يا بني .. اتريد ان نموت شنقا ، بعد ان كدنا نموت حرقـا .

ـ كلا يا ابي .. فباستطاعتك انت ان تسافر ، واما انا فسابقى فـي هذه المدينة .

وفيما هما يتشارعان سمع الابن صياح امرأة تستغيث فاسرع لنجدتها، فوجد جماعة من الرعاع قد احاطوا بامرأة ورجل عجوز يريدون احراقهما، وهم يصيحون :

ـ انهم من الهيكونت .

ولم يكن الامر كذلك ، فقد كان الرجل من علماء باريس مر امـام تمثال ابو قراط ابو الاطباء ، فشاهد الناس قد انخدعوا بالتمثال وظنوه قديسا ، فاخذوا يحيونه ، ويركعون امامه ، فلما مر العالم امامه لم يفعل ، فغضب منه المجتمعون وهجموا عليه .

واقبلت في هذه الاثناء مركبة وقفت مـن شدة الزحام ، وكان فيهـا امرأة ، فلما شاهدت هجوم العامة على العالم ، صاحت :

ـ اتركوا هذا الرجل فهو اراميس العالم الشهير •

ولكن الناس لم يفعلوا ، وسمع العالم صوتها ، فاخذ يعمل للوصول اليهـا •

وكان ان هاج الناس ، واخذوا يحاولون قتل الرجل والمرأة، فصاحت المرأة مستنجدة ، فاقبل بارداليان يسوق الجمهور بسيفه ، حتى فتح من حول المركبة طريقا انسل منه العالم اليها وهو يقول :

ـ لقد نجونا بفضل شجاعة هذا الرجل •

وفتحت المرأة باب المركبة فصعد العالم اليها ، ولكن الناس رفضوا ان يتراجعوا امام رجل فرد ، فكروا عليه ثانية ، فعاد بارداليان يحرك سيفه فيسقط من يسقط من امامه ، ويهرب من يهرب •

وفي هذه اللحظة اخذت جموع الناس تتقهقر مذعورة مرتاعة •

وبرز بارداليان الكبير يشق الصفوف للوصول الى ولده • فلما بلغه توليا خفارة المركبة حتى وصلت الى مأمنها •

واضطرب بارداليان الصغير حين شاهد المركبة تقف امام الباب الذي دخلت منه جان لما تبعها لاول مرة ، يحاول ان يحدثها بحبه لابنتها •

ودعت السيدة الرجال الثلاثة الى الدخول ليأخذوا حظهم من الراحة ففعلوا •

وقـدمت لهما المرأة نفسها على انهـا (ماري توشيت) •• وقـدم بارداليان الكبير نفسه على انه يدعى (بيسار) •• وعلى ان رفيقه الشاب يدعى المسيو دي روشيت •

فقالت ماري :

ـ اذا فاعلماني اني لن انسى اسميكمـا ابـدا في حياتي ، بعـد ان انقذتماني من الموت •

وبعد ان قدمت (ماري) لهما المرطبات ، غادرا المنزل يبحثان عن

مكان يأويان اليه ، بعد ان رفض بارداليان الصغير مغادرة باريس رغم الاخطار التي يتعرض لها فيها •

وفي اليوم الثالث جاء الملك شارل التاسع لزيارة عشيقته ماري توشيت ، فقصت عليه ما تعرضت له من الخطر مساء امس ، وكيف اقبل لانقاذها هي والعالم اراميس رجلان •• يدعى اولهما الضابط بيسار ، ويدعى الثاني دي روشيت ، وسألته مساعدتهما ومكافأتهما •• فوعدها الملك ان يفعل •

واصدر بعد عودته الى اللوفر امرا بالبحث عن الرجلين ، ولكن احدا لم يعثر عليهما •

كما اصدر الملك امرا يقضي بعدم الركوع امام تمثال ابو قراط ابي الطب •• وكان امره مقضيا •

— ٥ —

رسول الملكة

لم يجد الزجلان فرنكا في جيوبهما حين عضهما الجوع للذهاب الى مطعم يأكلان منه ، ولولا ان (بينو) كلب باردليان قد سرق قطعة من اللحم ، اختطفها من احد المطاعم ، فاقتسمها الثلاثة ، لما وجدا ما يأكلان ، بعد ان اعطيا كل ما معهما من النقود الى (كاتي) صاحبة الخمارة المحترقة .. تعويضا لها وتقديرا لاخلاصها .

وضاق صدر الشاب حين وجد نفسه في هذه الحالة الصعبة ، لا مال في جيبه ، ولا مأوى يأوي اليه ، وادرك ابوه ما يجول في خاطره فقال له :

— هوّن عليك يا بني .. فليس الفقر عيبا .. ولقد قضيت حياتي متشردا اعيش من سيفي ، رافع الرأس حديد الساعد ، ولا بد ان يتبدل حالنا الى اليسر والرخاء فلا تقنط ولا تجزع .. هل لا تزال مصرا على البقاء في باريس ؟

فقال الشاب :

— نعم .

فقال له باردليان الكبير :

ـ اذا علينا ان نبحث عن مكان نبيت فيه •

ـ لقد وجدت مكانا نأوى اليه فقد عرض عليّ المارشال فرانسوا دي مونتمورانسي المبيت في قصره •

ـ انسيت اني احتفظت ابنته واسأت اليه اساءة بالغة ؟

ـ لقد نسي ذلك •

ـ اني افعل غير ذلك •• اذهب انت الى قصر فرانسوا ، وانا اذهب الى قصر هنري دي مونتمورانسي •

وكذلك اتفق الرجلان ومضى كل منهما الى القصر الذي اختاره •

وقد استقبل فرانسوا بارداليان استقبالا فخما واختار له احسن غرفة في قصره ليبيت فيها •

واما بارداليان الاكبر فقد ذهب الى الفندق عملا بوصية ابنه لجلب (كاليور) جواد ولده ، الذي اوصاه به وسأله ان لا يبيعه ، وحدثه عن قصته وكيف ان هنري دي مونتمورانسي اهداه له ، حين انقذه من قطاع الطرق •• دون ان يعرفه او يدري من يكون •

وبعد ان ركب بارداليان الجواد ذهب الى قصر هنري ، حيث وضع الجواد في الاسطبل ، ثم توجه توا على غرفة المارشال ، فلما شاهده صاح قائلا :

ـ تعال •• فاني في حاجة اليك •• لقد سألتك ان يكون الفيكونت دي اسبرمونت من اصحابك ، فاذا بك تعاديه وتقاتله •

فقص عليه بارداليان القصة ، وكيف ان الفيكونت هو المخطىء ، وهو الذي وقف في طريقه وطلب مبارزته ، فلم يجد بدا من ان يبارزه •

وختم حديثه قائلا :

ـ اريد منك يا سيدي ان تشاهد شيئا آخر •

فقال له هنري :

ـ لقد خسرت بسببك صديقا وسيفا .

ـ ولكني اتيتك بما هو افضل منه .

ـ وما هو هذا الشيء ؟

ـ تعال وانظر اليه في الاسطبل .. او تعال وانظر من النافذة فتراه .

واقترب هنري من النافذة وقد استبد به الفضول ، فشاهد جواده القديم (كاليور) فاندهش وصاح :

ـ كيف اتيت به ؟

ـ لقد اعطاني اياه الرجل الذي انقذك من قطاع الطرق .

ـ هذا صحيح .. ولولاه لما كنت على قيد الحياة .

ـ الا تريد ان تعرف اسم هذا الرجل ؟

ـ من كل قلبي .

ـ انه الشفاليه دي بارداليان ابني يا سيدي .

فسمّر هنري في مكانه ، ثم قال :

ـ قص علي القصة .

فقص عليه بارداليان ما تعرض له ابنه من المشاق في المدة الاخيرة .

وكيف قرر مغادرة باريس ، بعد ان اخذ الجميع يطاردونه .

وقال هنري :

ـ ولكنه لو اتى اليّ لحميته في قصري .

ـ ولكن ابني قد عرف قصة الاجتماع الذي عقد في فندق ديفنير ، وهو لا يريد العودة الى الباستيل .

ثم مضى بارداليان يحدثه بمعركة الخمارة التي احترقت ، وكيف هربا من الحريق ، فقال له هنري :

ـ ولكنك اصبحت مسؤولا مثله ، فلماذا بقيت في باريس ؟

ـ لقد بقيت لاني وعدتك ان اكون معك ، وان اقوم بخدمتك .

فاعجب هنري باخلاصه ، وصافحه ، وارتفعت منزلته عنده .

وبعد ان كان الاب وابنه ، لا يدريان اين يبيتان تبدلت الامـور ، واصبح فراشهما في القصور .

★★★

ذهب فرانسوا دي مونتمورانسي في اليوم الثالث الى قصر هنري دي مونتمورانسي مع فارس واحد ، وقرع باب القصر ، وطلب هنري .

فاخبره حارس القصر ان هنري ليس في القصر ، وانه غادر باريس بأمر الملك .

وعندئذ نفخ الفارس الذي كان مع فرانسوا في البوق ، ونادى بصوت مرتفع ثلاث مرات :

ــ هنري دي مونتمورانسي .. دوق دامفيل .

ولما لم يجبه احد دنا من الباب وهو يقول :

ــ لقد أتينا لنناقشك الحساب يا هنري دي مونتمورانسي عن اهانة عظيمة لحقت بنا .. وقد انذرناك اننا سنقصدك اليوم .

« ولهذا فمن حقنا ان نقول لك ، حين لـم نجدك ، انك هربت كمـا يهرب الجبناء » .

وعندئذ انصرف فرانسوا مع الفارس من حيث اتيا .

وكان بارداليان قد ذهب عند مغادرة فرانسوا لقصره الـى صديقـه ديودات ، واخبره بما اعتزم المارشال ان يفعله ، واتفق الصديقان على ان يقفا بعيدا عن القصر ، حتى اذا احتاج فرانسوا الى المساعدة اسرعا اليه .

ولما انتهت زيارة فرانسوا الى قصر شقيقه على النحو الذي وصفناه ، دعى ديودات صديقه بارداليان لزيارة خطيبته ، فوافق الشاب ، وتوجهـا الى منزل اليس دي ليكس .

ولم يكن بارداليان قد ذكر لصديقه عندما كانا يتحدثان عن حادثة الجسر ، ان فتاة جميلة كانت ترافق ملكة النافار في العربة •

وكانت اليس في الوقت نفسه لم تذكر لخطيبها ديودات انها كانت مع الملكة عند حادثة الجسر ، ولهذا كان الشاب والحالة هذه يجهل انبارداليان قد انقذ خطيبته من الموت ايضا •

وكانت اليس في هذه اللحظات من قصتنا تقاسي عذابا صامتا بوجود جان وابنتها لويزا في المنزل ، وفي الدور الثاني منه •

وكانت تخشى ان يراهما خطيبها فيسألها عن امرهما فلا تعلم ماذا تجيبه •

وكانت اليس في الوقت نفسه تبعث تقاريرها في كل يوم الى الملكة كاترين تقول فيها •• « لم يحدث شيء •• او رأيت الرجل والامور تجري على احسن ما يرام » •

وقد ذهبت في هذه الليلة والقت بتقريرها في المكان المخصص له ، ثم احست بيد تضع ورقة في يدها ، فلما عادت الى المنزل قرأتها فاذا فيها ما يلي :

« دعي الرجل يقيم عندك الى الساعة العاشرة ، ثم اصرفيه بعد ذلك ، واعلمي ان احدا لا يريد به سوءا » •

وكانت الرسالة من كاترين الملكة ، وقد خشيت اليس على خطيبها من غدرها ، فاصفر وجهها وحارت ماذا يجب ان تفعل •

وبعد قليل اقبل ديودات وقدم لها صديقه بارداليان ، وعرفها بارداليان حالا ، ولكنه تظاهر بعدم معرفتها •

واخذ يسأل نفسه عن سبب وجودها في هذا المنزل ، وتذكر ان ملكة النافار ، قد عاتبتها على فتح نافذة المركبة ، والاعلان عن حقيقتها •

ولما دقت الساعة العاشرة ، وقف الكونت واستأذن بالانصراف •

ودعتهما اليس الى الباب ، ثم همست في اذن بارداليان ان لا يفارقه حتى يصل الى منزله ..

فارتعش بارداليان ، وادرك ان في الامر شرا .

وفيما كان الصديقان يسيران في الشارع تقدم منهما شخص وحياهما وهو يقول :

ــ اريد ان اتحدث الى الكونت دي ماريلياك :

فقال الكونت :

ــ انا هو فما الذي تريده منه ؟

ــ هل استطيع التحدث اليك بمفردك .

فضغط بارداليان على يد صديقه فقال هذا :

ــ باستطاعتك ان تتحدث امام صديقي فاني لا اخفي عنه سرا .

وكان الظلام حالكا ، وعرف بارداليان في الرجل مورفر وصوته .

ولكن مورفر لم يعرف بارداليان ، ولم يتبين وجهه .

فقال عندئذ مورفر :

ــ ان هناك سيدة تريد التحدث اليك ، والسيدة متقدمة في العمر وهي من اعظم النساء .. فليس الموعد والحالة هذه موعد غرام .

ــ الى اين نذهب اذا وافقت ؟

ــ الى المنزل القائم على الجسر الخشبي ، وعليك ان تكون وحدك .

ابتعد بارداليان بصديقه قليلا وقال بصوت منخفض :

ــ اتعلم اسم الرجل الذي يكلمك .. انه مورفر .. وهو من رجال كاترين .. وهل عرفت من تكون السيدة .. انها كاترين نفسها .

سأله ديودات بصوت متهدج .

ــ هل انت واثق مما تقوله ؟

ــ كل الثقة .

فعاد عندئذ ديودات الى مورفر يقول له :

ــ اني مستعد للذهاب معك •

وقال في نفسه :

ــ لقد آن لي ان ارى امي وجها لوجه •

اما بازداليان فقد طار قلبه شعاعا على صديقه ، وحاول منعه عن الذهاب •

ولكن الكونت اصر على المضي في خطته ، واخبر صديقه بلهجة اليائس ان كاترين دي مدسيس ملكة فرنسا هي امه ، وانه يريد الاجتماع اليها اخيرا •

وبقي بارداليان في مكانه يائسا قانطا ، وهو يكاد يجن حين علم بسر صديقه ، وقرر ان يقف بعيدا عن المنزل ينتظر حتى يخرج منه •

وكانت كاترين في هذه الاثناء تجلس في غرفة من غرف هذا المنزل مع الفلكي والد ديودات تنتظر قدوم ابنها وهي تسأل نفسها بين وقت وآخر •• فيما اذا كان سيأتي ام لا •

وكان الفلكي والد الكونت بادي الاضطراب مخافة ان يصاب ولده بمكروه ، والملكة تنظر اليه نظرة المشفق وهي تقول له :

ــ لقد طمنتك يا رينيه •

« وقلت لك اني لا اريد له الموت الليلة ، ولسوف اسبر سره في هذا الاجتماع ، فاذا وجدت منه خطرا على المملكة ، قتلت عواطفي وقتلته » •

فقال رينيه :

ــ ولكن اي دخل لحياته وموته في شؤون المملكة ؟

ــ لو كنت واثقة ان هذا السر سوف يبقى مكتوما لسكت عنه ونسيته ، واما ان اعيش ما تبقى لي من العمر تحت رحمة هذا السر الهائل ، فهو ما لا اطيقه •

« ولكني لن افعل اذا تمكنت من الاتفاق معه على بعض الامور •

« اني اريــد ان اشاهد ولدي الدوق دي انجــو يجلس على العرش هادئا مطمئنا بعد موت شارل شقيقه •

« ولكن امامنا عدو هائل يحاول ان يصرف العرش عن اسرة فالو ، الى اسرة بوربون •

« وملكة النافار تريد وتعمل ليكون ابنها ملك فرنسا ، وهي انمــا تتخذ عرش النافار ، سلما للوصول الى عرشنا ، وعليّ ان احطــم هــذا السلم •

« واعلم انه متى اصبح ولدي الدوق دي انجو ملكا على فرنسا، فقد يصبح ولدك ملكا على عرش النافار » •

ولكن الفلكي لم يكن ممن يثقون بكاترين ، ولهذا ظل خائفا قلقا •

★ ★ ★

تمالك (ديودات) نفسه لما مثل امام الملكة •• ولما سألته كاترين فيما اذا كان يعرف من تكون •

اجــاب :

ـــ نعم •• انك الملكة ام شارل التاسع •

ومضت المرأة تتكلم ، وقد ادركت من تمالك اعصاب الشاب الواقف امامها انه يجهل انها امه •

قــالت :

ـــ اني اريد خــير المملكة ، وقد اخترتك سفيري الى ملكة النافــار لاخلاصك لها ولثقتها بك •

« وكان باستطاعتي ان اكلف سواك ، ولكني فضلتك على غيرك مــن الناس اجمعين •

« اني اريد الخير للجميع ، واريد ان يعم السلام بلادنا ، ولهذا انـا اقترح اعطاء الهيكونوت من الحقوق في فرنسا ، مثل ما لدى الكاثوليك، كما اني مستعدة لاعطائهم بعض المراكز المنيعة ليطمأنوا فيها .

« وانـا مستعدة في الـوقت نفسه لارسال جيش فرنسي لمساعـدة الهيكونوت في هولندا .

« وفوق هذا انا مستعدة لتزويج ابنتي بملك النافار .

« فما رأيك فيما اعرضه عليك » ؟

فقال ديودات :

ـ هذه شروط حسنـة اذا روعيت .. لم يبق هناك من خـلاف ولا انشقاق .

ـ اذا بلّغ جلالتها ما سمعته مني ، وما عرضته عليك ، وهـذا كتاب مني يؤيد سفارتك هذه .

وكتبت كتابا بهذا المعنى الى ملكة النافار ، قالت لها فيه ، انها كلفت الكونت دي ماريلياك ، ليحمل لها اقتراحاتها وشروطها .

وبعد ان انتهت الملكة من كتابها قالت :

ـ اذا رضيت ملكة النافار باقتراحاتي هذه فلا بد لها من القدوم الى باريس لحضور الاحتفالات التي سوف نقيمهـا احتفالا بهذا السلام .. والاتفاق .

« كما اريد ان تكون حفلة ابنتي بملك النافار حفلة فخمة عظيمـة ، تنار لها باريس اياما عديدة .

« ولهذا اريدكم جميعا على حضور هذه الاحتفالات .. ولتعلم اني اعد لهنري دي نافار مستقبلا باهرا ، بعد ان يقترن من ابنتي .. ويصبح من اسرتي .. اريد له مملكة كبيرة مستقلة ، كبولونيا مثلا .

فقال ديودات مذهولا :

ــ بولونيا ؟

ــ نعم •• فقد وردتني اخبار خاصة عن هذه المملكة ، واعتقد انـي سوف اظفر بعرشها قريبا •• لاحفظه لاحد اولادي •

ــ ولكني لا اظن ان ملكة نافار ، تتخلى عن عرش هذه المملكة •

ــ هذا ممكن •• ولكن ما قولك اذا خلا عرش النافار لسبب مـن الاسباب مثلا ؟

« اليس من الممكن ان يحدث هذا ؟• واذا حدث فقد وجدت شخصا لهذا العرش •

وعجب ديودات من غرابة هذا الحديث ، وذهل كيف تحدثـه الملكة بمثلـه •

وقد سره من جميع ما سمعه رغبة كاترين في السلم •• وزواج ملـك النافار بشقيقة ملك فرنسا الحالي •

وعادت الملكة تقول :

ــ وقد وجدت هذا الشخص الذي ارشحه لعرش النافار وهو انـت يا كونت !

دهش وقال : ولكني لست شيئا مذكورا في هذه الدنيا •

ــ ستصبح شيئا مذكورا •• بارادتنا ••

« والآن حدثني ما مبلغ صلتك بملكة النافار ، وتأثيرك عليها » ؟

ــ تعلمين يا سيدتي اني ولدت لقيطا لا يُعرف لي اب او ام ، وقـد تركتني امي السافلة لمصيري ، ودون ان تهتم بي ، فقامت ملكة النـافار بهذه المهمة ، وانا اعبدها كما لو كانت امي ••

فقالت كاترين :

ــ لقد عرفت بما عانيته من الشقاء في حياتك الاولى يا كونت وانـا واثقة اني لم اخدع بك ، فانت شريف نبيل فاخبر ملكة النافار بشروطي •

وقدمت له يدها ليقبلها كما هي العادة ، فتجاهلها وحنى رأسه مسلما ثم غادر القاعة ، وسقطت يد الملكة الى ركبتها ، وهتفت لما اغلق البـاب خلفه :

ــ انه عالم بالحقيقة •

فصاح الفلكي :

ــ ابدا انه يجهل كل شيء عن اصله •

ــ بل هو عارف بها •• اسرع بالاشارة ••

ــ سيدتي انه ولدنا ••

فجذبته بعنف الى النافذة ، وهي تقول :

ــ الاشارة ••

فذعر الاب وقال :

ــ رحماك يا كاترين •• واصفحي عن ولدنا •

وخافت الملكة ضيـاع الوقت ، فانتزعت الصفارة من عنقه ، وكـان يعلقها بسلسلة ذهبية ، ووضعتها امام فمها لتصفر بها •

ولكن الفلكي امسك بيدها وهو يقول :

ــ انظري •

فنظرت كاترين من النافذة ، فشاهدت رجلا قد انضم الى ديـودات فتأبط ذراعه وسارا معا •• فادركت عندئذ انه ليس وحده •

وافلتت الملكة الصفارة الى الارض وهي تقول :

ــ لقد افلت من يدي الآن ، ولكني سأظفر به ، فانا اعرف اين يقيم •

« وهذا الرجل يجب ان يموت ، كما يجب ان تموت تلك المرأة » •

-٦-

القبو المظلم

لما وصل ديودات الى المنزل الذي ينزل فيه كان الجميع نياما ، فأمر الخادم بايقاظ ملك النافار ، فايقظه ، واجتمع زعماء الحرب الموجودين في باريس على الاثر حول مائدة مستديرة .

فبسط لهم ديودات اجتماعه الى الملكة ، وما عرضته عليه .. واعلمهم انها تعلم بوجودهم في باريس ، فذعروا وخافوا من مكايدها .

ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا انها لن تحاول شيئا ضدهم في الوقت الحاضر على الاقل ، لان لها اغراضا اخرى تريد تحقيقها .

وقد سر الاميرال كوليني بما عرضته الملكة من ذهابه على رأس جيش لانقاذ المضطهدين من الهيكونوت في هولندا ، كما رضي الجميع بما سمعوه من رغبة الملكة كاترين في توطيد اواصر الصداقة والالفة بين جميع الشيع في فرنسا .

وتقرر اخيرا ان يغادر ديودات باريس في صباح اليوم الى حيث تقيم ملكة النافار ليطلعها على رسالة كاترين ومقترحاتها ، لان الملكة كانت رئيسة الحزب ، واليها يرجع الفصل في كل الامور السياسية .

وبعد انتهاء الاجتماع ، ذهب (ديودات) الى حيث كان بارداليان ينتظره في احدى الغرف ، وطلب منه ان يذهب الى (اليس) ويخبرها بانه مغادر باريس غدا وقد يطول غيابه شهرا ، يكون فيه في معية ملكة النافار ، التي لا بد ان تزور باريس وتقيم فيها ، فلا يبقى عندئذ مانع من زواجهما •

وافترق الصديقان •

وبعد ايام اخذت الاشاعات تملأ باريس عن رغبة البلاط بتعزيز السلام والعمل على الاتفاق مع الهيكونوت ، وعن الرغبة في زواج شقيقة الملك شارل التاسع مرغريت بملك النافار ، وان الهيكونوت جميعهم سيحضرون الاحتفالات التي سوف تقام بهذه المناسبة في باريس •

واما بارداليان فقد ذهب في صباح اليوم التالي الى منزل اليس حيث حدثها بسفر ديودات لمقابلة ملكة النافار ، واجتماعه الى كاترين في المنزل القائم امام الجسر الخشبي ، وكيف انها عهدت اليه بمهمة سرية الى ملكة النافار ، وقد غادر باريس لهذه الغاية ، وقد يطول غيابه شهرا ، وسيغتنم فرصة وجوده مع الملكة ليحدثها بحبكما •

وكان ان انتفضت (اليس) في مكانها لما سمعت هذا الخبر ، وقالت بصوت خافت :

ــ ويلاه ، لقد هلكت •

وعجب بارداليان لقلقها •

ــ لقد اردت ان اقول يا سيدتي ، انه سيخبر الملكة بهذا الحب،ويطلب الاذن منها بالزواج منك •

وكان ان اغمي على الفتاة ، فذهل بارداليان ، واستنجد بمن في المنزل، فاسرعت لورا ، تنضح الماء على وجهها ، وهي تقول :

ــ ان ابنة اخي تتعرض لمثل هذه الاعراض عند اقل حادث مؤثر •

وغادر باردليان الدار يفكر في سر هذه الفتاة ، فقد كان واثقا بعد الذي شاهده ، من انها تكتم سرا في قلبها •

ولما عاد بعد ايام لزيارتها ، وجد باب المنزل مقفلا ، وكذلك نوافذه ، كما وجد قصر هنري دي مونتمورانسي مقفلا ايضا ، فسأل الجيران عنها ، فلم يوفق الى معرفة شيء منهم •

وكذلك اصبح بارداليان وحيدا في باريس ، يذرع شوارعها بحثا عن جان وابنتها فلا يوفق ، ثم يعود الى قصر فرانسوا دي مونتمورانسي للمبيت فيه •

واما بارداليان الكبير فقد كان لا يزال في قصر هنري دي مونتمورانسي ، بعد ان اقفل هذا بابه وارسل نصف خدمه الى منزل آخر له في شارع مونمارتر •

وكان هنري في قصره ، حين جاء شقيقه فرانسوا يتحداه ، ويضع القفاز على بابه ، مؤكدا نذالته وجبنه ، ولكنه لم يظهر ، وظل يراقب ما يجري امام القصر ، من خلف ستار احدى النوافذ ••

وقد حدث بعد يومين ، وعند زيارة هنري للفيكونت اسبرمونت ، الجريح في غرفته ، ان توجه هنري بعد ذلك الى غرفة بارداليان الكبير واتهمه بانه كذب عليه وخانه ، وان الرجل الذي هاجم المركبة لم يقتل ولا يزال حيا ، وانه ابنه بارداليان •

فأجابه بارداليان :

ــ اني لا استطيع تكذيبك ، فقد يكون كل ما قلته صادقا ، وعليّ ان اهنئك لصدق المعلومات التي وصلتك ، لاني كنت اظنك محاطا بالابطال والاشراف ، فاذا ابطالك واشرافك من الجواسيس ، واذا انت رئيس هؤلاء الجواسيس •

واحتدم الشر بين الاثنين ، وهجم هنري على بارداليان يريد قتله

بخنجر في يده ، فأمسك هذا بـه ، وانتزع الخنجر منه ، فنـادى هنري رجاله ، فأسرع اليه ستة منهم •

صاح بهم هنري :

ــ اقتلوه •• اقتلوه ••

هجمـوا عليه دفعة واحدة ، ولكنـه رماهم بكرسي ، فالقى بعضهم ارضا ، وجعلهم يبتعدون عن الباب ، فلما فعلوا ، اسرع اليه وهرب منه ، وهو يضحك ، حتى وجد امامه في اسفل السلم بابا مقفلا ، لم يتمكن مـن فتحه ، وكان هنري يصيح برجاله ، ويدعوهم لقتله •

ووقف بارداليان عند اسفل السلم يقاتل خصومه ، ويهاجمهم •• فظفر بثلاثة منهم •

ولم يبق امامه الا ثلاثة ، ولكنه جرح في أثناء ذلك ، ومع هـذا فقد تمكن من الرابع ، وهو يصيح ويشتم الاوغاد ، الذين يهاجمـون شخصا واحدا •

ولما تمكن من الخامس وجرحه ، احس بالدم يتدفق من جسده ، وكاد يغمى عليـه •

وشاهد هنري انه اصبح في حالة عجز ظاهر ، فجعل يصيح في الاثنين الباقيين :

ــ اقتلوه •• اقتلوه •• اجهزوا عليه •

وكان بارداليان قد اخذ يزحف بمحاذاة الجدار ، بعد ان كثرت جراحه ، حتى انفتح امامه باب قبو ، وسقط الحسام من يده ، فانسل منه ، ليقـع اخيرا مغمى عليه في داخله •

وعندئذ صاح هنري برجاله :

ــ اقفلوا باب القبو عليه ، ودعوه يموت جوعا •

★★★

لو اراد هنري ورجاله ان يتبعوا بارداليان الى القبو لتمكنوا منه وقتلوه بالتأكيد ، ولكنهم لم يفعلوا ، وظنوا انه سوف يموت جوعا فتركوه وشأنه ، حتى اذا مات القوه في نهر السين .

ولكن بارداليان عاد الى نفسه بعد وقت قصير ، واخذ يفحص جراحه، فاذا هي جراح غير قاتلة .

ثم راح يفحص القبو الذي هو فيه فادرك بعد قليل انه في قبو لتخزين الخمور .. حين عثر على ثلاث زجاجات من النبيذ هنا وهناك .

شرب واحدة منها فانتعش وعادت اليه قوته ، فعمد الى تضميد جراحه بتمزيق قميصه ، ولما لم يجد ماء يغسل به جراحه غسلها بالنبيذ .

وبعد ان درس موقفه ادرك انه لا يستطيع الشفاء قبل اسبوعين ، وحتى يستطيع الحياة مدة اسبوعين كان لا بد ان يأكل .

وقد عثر وهو يفتش في القبو على فخذ من اللحم المقدد فاكل قطعة منه ، وفرح فرحا عظيما بذلك وقال في نفسه :

ــ لقد وجدت الطعام والشراب ، وساجعل فراشي من قش قناني النبيذ ، فاشفى بعد اسبوعين .

لم يبق امامه بعد ان اطمأن الى نفسه بعض الشيء ، الا ان يحتاط لنفسه من خصومه ، فلا يدخلون عليه وهو نائم فيقتلونه دون ان يستطيع دفاعا عن نفسه .

وقد فتقت له الحيلة ان يضع بعض زجاجات النبيذ خلف الباب وقدامه، حتى اذا اقتحموه وقعت القناني على الارض وتكسرت فاحدثت صوتا ، ينذره ويحذره ، فيستعد لهم بخنجره الذي لم يكن يملك من السلاح غيره.

ومرت الايام ، وهو لا يستطيع خروجا من القبو ، وقد كاد ينفد الفخذ المقدد بعد الاقتصاد العظيم ، او كاد ينفد ، وكان قد مضى عليه وهو

في سجنه هذا شهر واحد ، ولم يبق له غير ايام يعيشها ، ثم يمـوت جوعا وعطشا .

★★★

كانت ملكة نافار تقيم في الروشيل وهـي مدينة حصينة ، اختارهـا الهيكونوت لتكون ملجأ لهم وعاصمة لملكهم .

وكانت الملكة قد حصنت هذه المدينة ، وقررت ان تجمع فيها كل مـن يحمل السلاح من الهيكونوت ثم تضرب بهم ضربتها القاضية ، لتحصل على ما تريده من العدالة والانصاف لجماعتها .. بعد ان تزحف على باريس وتحتلها .

وكانت قد قررت في الوقت نفسه وقبل ان تضرب ضربتـها هذه ان تختطف الملك شارل التاسع ملك فرنسا من باريس .

ولهذا ذهب ولدها والبرنس كونديه وكوليني الى العاصمـة لهـذه الغاية .

كما قررت ان ترسل الف رجل من رجالها الى باريس يدخلونها فرادي، ويحتلون بعض المراكز الهامة فيها مثل اللوفر ومونمارتر ، ثم تزحف هي على باريس على رأس خمسة عشر الف جندي ، وعشرين مدفعا ، حتى اذا وقفت على قمة مونمارتر اشارت اشارة خاصة ، فيصيح رجالها :

« ان الملـك شارل اسير في معسكر الهيكونوت » ثم يبـدأ الجيش هجومه على مونمارتر وتدخل الملكة بجيشها الى باريس ، وتزحف عـلى اللوفر فتحتله ، ويشترطون على الملكة كاترين الشروط التي يريدونها .

هذا هو الموقف عند وصول (ديودات) الى روشيل ، حيث اجتمـع الى الملكة ونقل اليها مقترحات الملكة كاترين .

وفكرت ملكة النافار في هذه الاقتراحات ، وفيما حدثها به (ديودات) من ان كاترين عرفته ، ووعدته بصورة مباشرة ان تجعل منه ملكا على النافار ، بعد ان تقدم لملك النافار عرش بولونيا ، وهي اعظم من مملكة النافار واكبرهم •

وادركت ملكة النافار في الوقت نفسه ان كاترين لا بد ان تكون مخلصة في اقتراحاتها ، اذا كانت حقا تريد الخير لولدها الذي عرفته ، ووجدته بعد طول غياب ، فرضيت بمقابلة ملك فرنسا في (بلوا) ثم تذهب لباريس ، ووافقت ايضا على زواج ابنها من مرغريت اخت الملك •

ولكن ديودات اعرب لها عن عدم رغبته في العرش والسلطان ، وانه بحاجة الى حياة عائلية وحب ، بعيدا عن الجاه والمناصب •

وفطنت الملكة الى ان هذا الشاب بحاجة الى الحب ، فطلبت منه ان يصارحها بما في نفسه ، فاعترف لها بحبه لاليس دي ليكس ، وانه يريدها زوجة له •

وجمدت الملكة في مكانها لما سمعت هذا النبأ ، وتمالكت اعصابها •

لقد وقع هذا النبأ وقعا شديدا عليها •

كانت تشفق على (اليس) بعد خيانتها لها • ولكنها كانت تشفق على ديودات اكثر منها ، وتكره ان تزوجه من خائنة جاسوسة ، كما تشفق عليه من اليأس الذي سوف يتعرض له فيما اذا حدثته بقصتها وخيانتها •

واحس ديودات بتردد الملكة •

فسألها :

ـ هل تظن سيدتي اني اسأت الاختيار ؟

ولما شاهدها تلزم الصمت ركع امامها يسألها ان تقول كلمة ، وان تصرح بما يجول في نفسها •

ولكنها ابت انّ تفعل ذلك في الوقت الحاضر ، وسألته ان يلتزم السكينة اياما ريثما تجتمع الى اليس وتتحدث اليها ، ثم ترى ما يكون بعد ذلك •• لانها لم تعرف الفتاة حق المعرفة ، وتريد ان تتحقق انها اهل له •

فتنهد ديودات وقال :

ـ انها في باريس ، وهي تعيش في شارع لاهاسي في منزل بابه اخضر قرب البرج الجديد •

ـ حسنا سأسافر غدا الى باريس ، وستسافر انت معي لتكون رئيس حراسي •• فاذهب وتأهب •• للسفر غدا •

وفي اليوم التالي سافرت ملكة النافار على رأس مائة وخمسين فارسا الى بلوا كما غادر الملك شارل التاسع وامه كاترين باريس الى بلوا ايضا ، ومعهما اشد المتعصبين على الهيكونوت •

وقد لحظ الملك ذلك ، وتحدث الى امه بالامر ، فقالت له هذه :

ـ لقد اخترت اكثر الكاثوليك تعصبا ، ليكون هذا دليلا على اننا جميعا نريد الاتفاق والسلام •

وكان في حاشية الملك الدوق دي كيز ، وهنري دي مونتمورانسي ، وقد اجتمع هذا قبل سفره مع الملك الى جيل وكيل قصره ، وشدد عليه في حراسة الاسيرتين ، كما اخبره ان في القبو جثة يجب التخلص منها •

وبعد سفر هنري ارسل (جيل) يدعو ابن اخته جيلوت ، وامره بنقل الجثة الموجودة في القبو والقائها في النهر •• فذلك خير من ان نحفر لصاحبها حفرة وندفنه فيها •

فسر جيلوت بهذه المهمة ، واخذ يسن سكينا كانت معه وهو يقول :

ـ لقد هددني هذا العجوز بقطع اذني وهو حي ، وانا اريد الان قطع اذنه وهو ميت •

وذهب الاثنان الى القبو ، فدفعاه في اول الامر بعد ان فتحا بابه بالقفل

فلم يفتح ، فهزاه اكثر من مرة حتى انفتح اخيرا وسقطت القنـاني على الارض ٠

ثم تقدم الرجلان ينزلان السلم ، وقد توهما ان رائحة الجثة المعفنـة قد ملأت المكان فسدا انفيهما ، وترك (جيل) حسامه عند الباب لعـدم حاجته اليـه ٠

واما (جيلوت) فامسك بسكينه لانه كان يريد قطع اذني بارداليان ٠

دخل الاثنان الى القبو يبحثان عن بارداليان ٠٠ فكانا يتعثران بـين وقت وآخر بالقناني الملقـاة هنا وهناك ، وبعظام اللحم المقـدد ، فصاح (جيل) :

ــ لا بد ان هذا الشيطان قد شرب كل ما في القبو من قناني النبيذ ٠

وقال (جيلوت) :

ــ اني لا اجد له اثرا ولا بد ان الجرذان اكلته ٠

ولما لم يعثرا على بارداليان عاد الى الباب فوجداه مقفلا ، فطار عقلهما من الرعب ، وسمعا في هذه اللحظة قهقهة بارداليان وهو يقول :

ــ لا تخف يا جيلوت فسوف اقطع اذنيك كما وعدتك ٠

وعندئذ جمد الدم في عروقهما ، وانحبس لسانهما عن الكلام ٠

وكان بارداليان لما احس بقدومهما قد وقف خلف الباب ، فلما دخلا الى القبو ، خرج منه بعد ان اقفله خلفه ٠

وبعد ان انتهى من ذلك صعد الى القصر يفتش غرفة الواحـدة بعد الاخرى ، حتى وصل الى غرفة هنري دي مونتمورانسي فاختار من ملابسه احلاها واجملها فلبسها ، بعد ان خلع ملابسه ٠

ثم ذهب الى غرفة الحرس ، فاخذ منها درعا ، ومن غرفة اخرى حذاء وقبعة جميلة ، وتقلد خير حسام وجده ٠

وفي غرفة اخرى وجد صندوقا مقفــلا فتحه بسكينه فوجده مليئــا بالذهب ، فقال لنفسه :

ــ اني لست من السارقين ، ولكن هنري دي موتتمورانسي مدين لي بمبلغ عظيم من المال لمحاولته قتلي وجرحي وسجني •

واخذ يقدر الغرامة التي يستحقها فوجد انها تبلغ ثلاثة آلاف قطعــة ذهبية وضعها في جيبه ، واقفل الصندوق ثم غادر القصر ، متوجها الــى قصر المارشال فرانسوا دي موتتمورانسي للبحث عن ابنه فوجده فيــه سالما حيــا •

- ٧ -

اللقـــاء

قال بارداليان الاب لما انتهى من قصته واستمع الى قصة ابنه ، وكيف انه فشل حتى الان في العثور على مكان الاسيرتين ، جان ولويزا :

ـ اعتقد يا بني اني استطيع الوصول الى المكان الذي توجد فيـه الاسيرتين •

فاهتاج الابن لما سمع هذا الخبر ، وقال :

ـ اتهزأ بي يا ابي ؟

ـ معاذ الله يا بني •• فان (جيل) وكيل قصر هنري دي موتتمورانسي لا بد ان يكون عارفا بمكانهما ، فتعال معي نسأله ، فلا بد ان اعصابه قد لانت وتخاذلت بعد الساعات التي قضاها في القبو ، هو وابن اخته •

وذهب الاثنان ثانية الى قصر هنري موتتمورانسي ، وفتح بارداليان باب القبـو ، ودخـل اليه ، بعد ان اوصى ابنـه بالوقوف امام البـاب للحراسة •

فلما شاهده جيل قادما ذعر ذعرا شديدا ، وخشي ان يكون قـد اتى لشنقه او لتعذيبه •

ولكن بارداليان طمأنه وقال له :
ـ اني اريد التحدث اليك ، ولكني سوف اقطع اذني ابن اختك كما وعدت •
ولما عرف (جيل) ما يطلبه منه بارداليان رفض خيانة مولاه ، واصر على الرفض •
واعلن انه مستعد لدفع كـل ما يملك من المال اذا اخلى بارداليـان سبيله •

فغضب بارداليان لرفضه ، وصاح بابنه ليأتي بالحبل ، متوعدا بشنقه•

ولكن (جيل) اصر على موقفه رغم الموت الذي كان يهدده ، فاعجب بارداليان بجرأته وحار في امره ، وكان ان تحرك جيلوت في هذه اللحظة ، ووعد بارداليان بان يدله على المنزل الذي توجد فيه الاسيرتان اذا تركـه يذهب حرا ولم يقطع اذنيه ، فوافق الفارس ، فقال جيلوت رغـم تهديد جيل له :

ـ انهما موجودتان في منزل في شارع لاهاش ••
واعطاه وصفا للمنزل •

فادرك بارداليان الصغير حالا ان المنزل المذكور هو منزل اليس دي ليكس ، فاصفر وجهه وقال لابيه :
ـ هيا بنا فقد عرفت المكان •
فنظر عندئذ بارداليان الكبير الى جيل وابن اخته وقال لهما •
ـ اذهبا فقد عفوت عنكما واطلقت سراحكما •
فقال جيل والعرق يتصبب من وجهه :
ـ لا بد ان سيدي هنري مونتمورانسي سوف يشنقني •
فقال له الفارس :

ــ بل ساذكر له انك حافظت على عهده ولم تخنه •• وسادافع عنك قدامه •

وذهب الفارسان على الاثر الى منزل اليس دي ليكس ، فظنت اليس عند رؤيتها بارداليان انه قادم من عند خطيبها الكونت •

ولكن هذا اعلمها انه قادم لغرض آخر ، وهو ان يطلب منها اطلاق سراح الاسيرتين الموجودتين عندها •

فاهتزت (اليس) لما سمعت ذلك وقالت له :

ــ لقد اطلقت سراحهما منذ اليوم التالي لزيارتكما انت والكونت لي •

ــ اهو الدوق هنري دي مونتمورانسي الذي طلب منك اطلاق سراحهما •

ــ ابدا •• بل انا الذي فعلت ذلك •

سألها :

ــ الى اين ذهبتا ؟

فاجابته انها لا تعلم ، وانها قد عرضت عليهما احد بيوتها لتأويا اليه فرفضتا ، ولا بد انهما استأجرتا بيتا آخر ، ولما كانتا لا تملكان مالا فقد قدمت لهما بعض المال ، وقد قبلتاه بعد تردد كثير •

وقالت : لقد اطلقت سراحهما رحمة بهما ، وحتى لا يلعنني خطيبي اذا عرف بذلك •

« وما فعلت ما فعلته ، واحتفظت بهما الا تحت تهديد هنري ووعيده » •

وكان بارداليان قد زار اليس وحده ، وذهب ابوه للخمارة التي انشأتها (كاتي) بالمال الذي قدمه بارداليان الكبير لها •

وفيما هو يشرب قدحا سمع دقات الطبول تدوّي من بعيد ، فنادى (كاتي) يسألها عن السبب ، فاخبرته ان الملك قادم من (بلوا) ويقال ان

في صحبته ملك النافار وملكتها •• مع جماعة كبيرة من اعيان الهيكونوت ونبلائهم •

ـ اذن سأذهب لمشاهدة الموكب •

وذهب الى شارع مونمارتر حيث يمر الموكب ، واستأجر كرسيا بريال ووقف فوقه •

وبدأ الجنود يتقدمون لتفريق الناس ليفسحوا طريقا لمرور الملك •

وبعد قليل اقبل الملك شارل التاسع في مركبة مذهبة يجرها عدد من الجياد ، ويحف بها الحراس •

وكان الملك مصفر الوجه ينظر الى الناس بقلق وحذر •

وقد جلس الى يساره ملك النافار يحيي الناس بكلتا يديه •

ثم اقبلت مركبة اخرى مذهبة جلست فيها كاترين وملكة النافار •

وقد بدت كاترين باسمة ضاحكة ، كأنما هي واثقة من ان ملكة النافار لن تفلت من يدها •

اما ملكة النافار ، فقد كانت تفكر في ابنها ومستقبله ، وتقول لنفسها: « لقد ضمنت له بهذا الزواج عرشه » ولكن قلبها كان ابدا ينذرها بمصاب عظيم سوف يحل بها قبل ان توفق الى تحقيق احلامها •

وسار الموكب والنبلاء من حوله امثال الدوق دانجو ، والدوق دي كيز ، والاميرال كوليني العجوز ، وباردليان ينظر من حوله فرحا ، ويقول لنفسه :

ـ لقد عرفت الان كيف دخل الهيكونوت الى باريس ، ولا ادري كيف سيخرجون •

وكان ان شاهد هنري دي مونتمورانسي بارداليان في هذه اللحظة ، فلم يصدق عينيه عند رؤيته ، لانه كان يعتقد بموته •

كما شاهده ايضاً كل خصومه ، امثال مورفر وكاليس ورفاقهما ، وقال احدهم وهو على اشد ما يكون من الذهول :

ــ اليس هو الرجل الذي احرقناه في الخمارة منذ اسابيع ؟

وخشي بارداليان عاقبة البقاء في مكانه ، فقرر مغادرته ، ولكن الزحام كان شديدا .

وكان ان اشار الدوق دانجو الى حراسه ، اشارة خاصة ، فجعلوا يتقدمون نحو بارداليان ، وفي مقدمتهم هنري دي مونتمورانسي ، والفيكونت اسبرمونت ومورفر وكانيس ، ومونتغرون ، وخلفهم فرسان من حاشية الدوق دانجو ، وتقدم رئيس حراس الدوق من بارداليان يطلب منه تسليم سيفه .

وضحك بارداليان ضحك الساخر :

ــ ما عليك الا ان تحاول اخذه اذا استطعت .

★ ★ ★

كان لا بد ان تبدأ المعركة على الاثر ، بعد ان انتظم الخصوم دائرة حوله ، وان يبدأ بارداليان باستعمال سيفه ، وصاح مورفر :

ــ ان لهذا الرجل ولدا يدعى بارداليان ايضا تجاسر على اهانة الملك فلنأخذه اسيرا حتى نعذبه .. ونعرف منه مكان ولده .

فاستحسن هنري هذا الرأي ، وهجم الجميع على الفارس الكبير، وفي هذه اللحظة سمع الجميع صوتا يقول :

ــ لقد اقبل الذي تطلبون .

وسقط على الاثر رجل من المهاجمين ، وامتطى على الاثر جواده رجل لم يكد الخصوم يرونه حتى عرفوا فيه بارداليان الابن .

وهجم الشاب على الفرسان الذين احاطوا بوالده ففرقهم من حوله •

وكان بارداليان الابن في طريقه الى الخمارة بعد مغادرته منزل (اليس) فشاهد تجمع الناس في الشوارع المؤدية الى قصر اللوفر ، فراح يشق طريقه بينهم ، وفجأة سمع صوت والده فاقبل لنجدته •

وكان ان بدأت المعركة بين عدد كبير من الفرسان ، وبطلين من اجرأ ابطال السيف ، وبدأت المعركة شديدة قاسية ، كان يسقط فيها بين وقت وآخر احد الخصوم ، حتى تمكن احدهم من طعن جواد بارداليان الابن بخنجره فخر ارضا ، وترجل الفارس يدافع عن نفسه وعن والده ، والاعداء قد احاطوا بهما من جميع الجهات ، حتى لقد خيل لهما ان ساعتهما قد دنت ، وان لا امل لهما بالنجاة ابدا •

ولقد وقف البطلان يردان بسيفهما خصومهم العديدون ، وصاح بارداليان بولده :

ـ اذا كان لا بد من الموت فلنمت موت الابطال يا بني •

ـ بل لنجتهد حتى لا نموت •

ولما شاهد قائد الحرس دفاع هذين الرجلين قال في نفسه :

ـ يعز عليّ والله قتل هذين البطلين ، فلاقبضن عليهما عساهما ينجوان •

وسألهما التسليم فرفضا ، فامر جنوده بالهجوم عليهما ، وكان قد سقط اربعة قتلى من المهاجمين حتى الان ، واصيب البطلان بجراح كثيرة في رأسيهما وايديهما ، وكان ان وصلا الى منزل في الشارع استندا على جداره ، واخذا يدافعان ، ويهاجمان ، حتى لقد جرحا عددا من الخصوم غير الذين قتلوا منهم •

ولكن الخصوم كانوا اكثر عددا ، وكان ينضم اليهم بين وقت وآخر

جماعة من الحرس ، حتى لقد خيل للفارسين انها النهاية ، وحتى قال الابن لابيه :

ــ وداعا يا ابي •

وفي هذه اللحظة حدثت المفاجأة ، وانفتح باب المنزل الذي استندا عليه ، وخرجت منه امرأة متشحة بالسواد ، فتوقف الجنود عن الهجوم •

وصاح بارداليان :

ــ ذات النقاب الاسود •

وتقدمت (جان) من هنري دي موتتمورنسي ، ووقفت ابنتها لويزا امام الباب ، وقد ادهش جمالها كل من شاهدها ، وهي تنظر الى بارداليان الابن نظرة رعب واعجاب •

فلما شاهدها الفتى ركع على الارض المصبوغة بدمه ، فدمعت عينا الفتاة ونظرت اليه بحنو واخلاص •

وهتف بارداليان يقول :

ــ لقد صح الموت الان •• فانها تحبني •

واغمي عليه في هذه اللحظة فلم يعد يعي •

تقدمت (جان) الى هنري دي موتتمورانسي ، فجمد في مكانه ، لا يصدق عينيه ، وقالت له :

ــ اني اتولى هذين الاسيرين بحمايتي •• فهل تريد ان تتركهما وشأنهما ، ام تريد ان اعلن للجميع السبب الذي يحملني على المدافعة عن هذين الرجلين وحمايتهما •

واحس هنري انه مغلوب على امره فحنى رأسه وهو يقول :

ــ انهما لك يا سيدتي •

وحاول رئيس الحراس الاعتراض •

فقالت له جان :

ـ اني ادعى جان كونتس دي بيانس ، ودوقة دي مونتمورانسي ، وسأحتفظ بهذين الرجلين في منزلي •

فحنى رئيس الحرس نفسه :

ـ امرك يا سيدتي ، وكل ما ارجوه ، ان لا يغادرا المنزل •

وساعدت جان الرجلين ، فنقلتهما الى منزلها ، حيث قامت بتضميد جراحهما هي وابنتها ، بعد ان انقذتهما من الموت •

والواقع ان هذا كان المنزل الذي استأجرته جان ، بعد ان غادرت منزل اليس ، وكانتا قد وقفتا على نافذة المنزل تشاهدان الموكب •

ثم شاهدتا المعركة بعد ذلك ، وعرفت (جان) في بارداليان الكبير الرجل الذي رد اليها ابنتها ، واعطاها الماسة لتستعين بها في باريس •

فاسرعت لانقاذه كما وصفنا ذلك •• وهي تحمد الله ان تمكنت من رد الجميل الى هذا الرجل الذي رد اليها ابنتها ، وانقذها من اليأس والشقاء •

وقامت (جان) تشكر بارداليان الكبير على جميله ، وتذكره بما فعله• والتفتت الى لويزا تقول :

ـ لويزا •• هذا هو الرجل الكريم الذي لم يبال بغضب هنري دي مونتمورانسي وردك الي •

« واني ابارك هذه الساعة ، التي تمكنت فيها من شكره وخدمته » •

فاسرعت لويزا تقبل بارداليان الكبير وتشكره •

فلثم بارداليان ذلك الوجه الكريم ، وتأثر تأثرا عظيما لم يشعر به في حياته •

واخذت عندئذ (جان) الخاتم الثمين ، الذي اهداه بارداليان الكبير لها ، ووضعته في يد ابنتها •

وهي تقول :

ـ لقد اقسمت ان لا يفارقني هذا الخاتم ، وستحافظ ابنتي على هذا القسم •

فنظرت (لويزا) الى بارداليان الابن ، واصفر وجهها ، كأنما اعتبرت هذا الخاتم ، بمثابة تأكيد للخطبة فيما بينهما •

★ ★ ★

قص بارداليــان الابن على جان بعــد ذلك قصته ، وكيف اخــذوه للباستيل ، فيما كان في سبيله لانقاذهما ، وكيف خرج منه بعد ذلك، واخذ الرسالة من الخادمة ، وذهب بها الى فرانسوا دي مونتمورانسي ، وكيف جن هذا من الحزن عندما علم بخطفهما •

كما فرح فرحا شديدا حين علم انهما لا تزالان على قيد الحياة ، وكيف راحا يبحثان عنهما معا فلم يوفقا •• حتى عرف بارداليان اخيرا بوجودهما عند (اليس دي ليكس) ، فذهب لمنزلهــا ، يسأل عنهما ، فأخبرته انهــا اطلقت سراحهما ، ثم ما كان من اجتماعه بهما في هذا المنزل •

وقالت الام في نفسها :

ـ فرانسوا •• ان دقيقة واحدة التقي بك فيها ، سوف تنسيني كــل ما لقيته من مرارة الحياة طوال السنوات العديدة التي مرت على فراقنا •

ثم قامت هي وفتاتها تجهزان للجريحين مكانا ينامان فيه ، وقد نــام بارداليان الصغير ملء عينيه ، ولكن والده ظل قلقا بعد ان شاهد الجنود يحيطون بالمنزل ، وادرك ان لا سبيل الى الهرب منه •

فلما كان صباح اليوم التالي كان هم بارداليان الابن مغادرة المنزل ،

والذهاب الى قصر فرانسوا دي موتتمـورانسي ، ليأتي به الى زوجتـه وابنته ، ثم تنتهي مهمته بعد ذلك •

وبعد ان درس بارداليان الابن اطراف المنزل ، وجد ان بامكانه مغادرته من السطوح ، بان يقفز من احدى النوافذ ، الى سطح منزل قريب ، حتى يصبح في شارع آخر ، فيذهب في سبيله آمنا •

وقد قفز حالا الى السطح المجاور للنافذة ، ولكنه وجد بعد قليل ان لا سبيل الى الهرب منه ، لان الجنود سوف يرونه •

وفيما هو في شأنه •• يفكر في مصيره ، سمع شخصا يناديه من فوق سطح آخر •

فالتفت هذا فشاهد العالم اراميس الذي انقذه من الجمهور ، الذي كان يريد قتله •

فقال له العالم :

ـ العلك تريد الهرب ؟

ـ نعـم •

ـ لا تغادر مكانك قبل ان اعود اليك ••

ونادى بارداليان والده فأقبل الى النافذة ، وجاء العالم بعـد دقائق مسلمـا •

وبعد ان عرّفهما بنفسه •

قال لهمـا :

ـ اهلا بكما يا مسيو بريسار ، ويا مسيو دي روشيت •

فأخبره بارداليان الكبير انهما لا يدعيان بهذين الاسمين ، وان اسمه الحقيقي هو هنري دي بارداليان ، واما هذا الشاب ابني ، فهو جان دي بارداليان •

فقال لهما العالم :

ـ اتبعاني فقد شاهدت المعركة ، ووقفت حتى رأيتكما تدخلان الى هذا المنزل •

ثم ذهب بهما من سطح الى آخر ، حتى وصل بهما الى منزل مجاور دخلا اليه ، فاعلمهما انه استأجره في صباح هذا اليوم ، لمدة اسبوع لما شاهد ان سطحه قريب من سطح المنزل الذي يقيمان فيه ، لعله يستطيع مساعدتهما على الفرار ، قياما بواجبه نحوهما •

وكان ان غادر بارداليان الابن المنزل مسرعا ، بعد ان شكر العالم ، الى قصر فرانسوا دي مونتمورانسي ، ففرح المارشال برؤيته ، وسأله عن امره •

فطلب منه الشاب ان يأتي معه ، فلما حاول ان يعرف السبب ، لاذ الشاب بالصمت •

فاحترم المارشال سكوته ، وذهب معه الى منزل العالم اراميس •

وهناك قفز بارداليان الى السطح واتصل بأبيه من النافذة ، واخبره ان يدعو جان وابنتها للنزول على السلم الى المنزل المجاور لمقابلة المارشال فرانسوا دي مونتمورانسي •

★ ★ ★

اقبلت جان ومعها ابنتها وفتحت باب القاعة التي كان المارشال ينتظرها فيها بهدوء ، وهي لا تزال بملابسها السوداء •

ومع ان بارداليان الاكبر اخبرها بأن المارشال ينتظرها ، الا انها جمدت عند رؤيته •

ولما شاهدها فرانسوا ، انحبس لسانه ، وجمد في مكانه لحظات ايضاء واخذت الدموع تتساقط من عينيه ••• ثم مشى اليها ، وركع امامها حتى كاد رأسه يلمس قدميها •

وعندئذ اخذ يشهق بالبكاء ويصيح :

ـ العفو ... العفو ...

ثم تمالك نفسه ، فضم جـان الى صدره ، وحاول ان يتكلم ، ولكن جان ابتسمت في وجهه ، وطوقت عنقه ، واسندت رأسها على كتفه .

ثم هتفت تقول :

ـ ايها الحبيب انك ستعرف اخيرا ذلك السر العظيم ، الذي لم اجسر على ان ابوح به لك منذ ثلاثـة اشهر ... نعم يجب ان تعرفه وسنقوله معا لابي .

وذعر المارشال حين سمعها تردد هذا الكلام القديم ، وصاح :

ـ جان ... جان ...

ومضت (جان) تقول :

ـ اصغ يا فرانسوا الى سرنا ... انك ستغدو ابا .

ثم نظرت اليه تلك النظرات الطاهرة التي كان يعرفها في وجهها .

وقالت : ـ وانا سأغدو اماً .

وصاح فرانسوا صيحة منكرة ... فقد أدرك ان (جان) قد جنّت .

ثم سقط على الارض لا يعي .

ولما افاق من اغمائه ، شاهـد (جان) تجلس على كرسي قريب وهي باسمة هادئة ، وقد دلت عيناها على انها فقدت عقلها .

كما شاهد فتاة رائعة الجمال راكعة بقربها ، وقد وضعت رأسها على ركبتيها وهي تبكـي ... فدنا من الصغيرة ولمس كتفها ، فرفعت رأسها اليه ، فشاهد صورته في وجهها ... فأدرك انها ابنته .

ضمها الى صدره وهو يناديها بأعذب الالفـاظ ... واجلسها على ركبتيه وهو يقول :

ـ لقد فقدت امك يا ابنتي حين وجدت اباك ...

واخذ الاثنان يبكيان ... وجان تنظر اليهما هادئة باسمة .

- ٨ -

الاعتراف بالحب

عاد هنري دي مونتمورانسي الى قصره مطمئنا الى ان بارداليان وولده لن يفلتا من يده بعد اليوم ، وبعد ان طوّق الجند المنزل وقاموا بحراسته .

لقد كان همه قتل الاب والابن معا ، فاحدهما قد خانه ، والآخر قد عرف سره ، وانه يتآمر مع الدوق دي كيز ضد الملك .

ولو عرف الملك بسره هذا لزجه في الباستيل او قتله .

كان لا يزال يحب (جان) ويريد الزواج بها ، ولقد انضم الى الدوق دي كيز بعد ان وعده هذا بالقضاء على اخيه ، فيصبح والحالة هذه زعيم اسرة مونتمورانسي ، ويستولي على كل املاكها وضياعها ، كما يحل محل اخيه في قيادة الجيوش ، وعظمة السلطان .

ولما عاد من (بلوا) وشاهد بارداليان وولده ، بعد ان كان يعتقد بموتهما ، أسقط في يده ، وتصور الخطر الداهم الذي يهدده لوجودهما على قيد الحياة .

ثم ظهرت جان امامه حرة طليقة بعد ان كان يعتقد انها اسيرة عند (اليس دي ليكس) فازداد قلقه واضطرابه ، وقرر الذهاب الى الملك

ليأخذ منه امرا بمهاجمة المنزل وقتل الرجلين ، وأسر جان وابنتها ، ثم عاد فتوجه الى قصره ليعرف كيف هرب بارداليان من القبو ، وكيف لم يمت جوعا طوال الايام التي قضاها اسيرا فيه .

ولما وصل الى باب القبو شاهد عجبا ...

شاهد جيلوت مقيدا مشدودا الى عمود ورأى وكيله (جيل) جالسا على برميل يشحذ سكينا .

وكان جيل قد قبض على ابن اخته وهو يسرق الصندوق الذي كان يضع فيه كل ما اقتصده ، فأمسك به وعدّ ما في الصندوق من المال فوجده ينقص ثلاثة آلاف دينار ، وهو ما اخذه بارادليان قبلا ، فطالب ابن اخته بالمبلغ ... فانكر ان يكون اخذه ، فجرّه الى القبو ، حيث اوقفه وقرر معاقبته .

وقد اعترف جيلوت لخاله بانه عرف مكان الاسيرتين لانه تبع المركبة دون ان يراه احد ، وانه افشى السر خوفا من بارداليان ومحافظة على اذنيه ، فكان ان قام (جيل) بقطع اذنيه جزاء خيانته .

ولما شاهد الدم يسيل من اذنيه اسرع يضمدهما ، حتى لا يموت ابن اخته لانه كان يريده حيا ليشهد امام هنري بانه لم يخنه ولم يخالف اوامره .

وكان ان وصل هنري في هذه اللحظة ، وعرف الحقيقة ، فطلب من جيل ان يترك ابن اخته وشأنه ، لانه سوف يفيد منه في خطته القادمة .

ولقد كان من شأن هنري دي مونتمورانسي بعد ذلك ان ذهب الى الملك واستحصل منه على امر بمهاجمة المنزل ، والقبض على بارداليان وولده ، واقبل الى المنزل بنفسه ومعه بعض حراس الملك لتنفيذ هذا الامر .

فلما شاهد بارداليان وابنه هذه الاستعدادات تأكدا من الخطر ،

واستعدا للموت ، وطلبا الى فرانسوا دي مونتمورانسي ان يغادر المنزل الذي استأجره العلامة هو وزوجته وابنته ، على ان يبقيا مكانهما للدفاع والقتال حتى النفس الاخير •

فأجابهما فرانسوا بلهجة حازمة :

ــ اني لا ابرح هذا المنزل الا اذا كنتما معي •

ثم نظر المارشال الى بارداليان الابن وقال له :

ــ ولتعلم يا بني انك اذا لم تبارح هذا المنـــزل معي اكرهتني على البقاء معك ، وعرضت السيدتين البريئتين للموت •

فارتعش بارداليان وقال :

ــ اذن نذهب جميعا •

واخذ الجميع يستعدون لمغادرة المنزل ، بعد ان قام الاب وابنه بتقوية الباب ، ووضع الحواجز قدامـــه ، حتى لا يسهل على الجنـــود فتحه في وقت قصير •

ولما انتهوا من ذلك ، سمعـــوا صوت الضابط الموكل بحراسة المنزل يقرأ بصوت عال ، امر من الملك الى بارداليان وولـــده بتسليم نفسيهما ليحاكما امام المحكمة بتهمة اهانة الملك ومقاومة حراسه •

واذا لم يفعلا فعلى الجنود اقتحـــام المنـــزل وقتـــل المتمردين اذا لم يستطيعوا اسرهما احياء ••• ليكون مصيرهما عبرة للجميع •

واعطى الضابـــط الرجلـــين مهلـــة للاستسلام ، وكان هنـــري دي مونتمورانسي يقف خلف الجنود ينتظر نتيجة هذه المعركة •

وكان ان فتح بارداليان الاكبر النافذة في هذه اللحظة وقال للضابط :

ــ الا تعلم انك وافقت على ان نبقى في المنزل تحت ضمانةالسيدتين•

فقال الضابط :

ــ اعرف ذلك ، ولكن السيدتين لا تعرفان بجرائمكما ، وقد صدر الامر الملكي بالقبض عليكما فهل تريدان ان تستسلما ؟

فقال بارداليان وهو يغلق النافذة :

ـ اما التسليم فانه شيء آخر لم احسب حسابه .

وصاح الضابط : سوف نرى .

وكرر الامر ثلاث مرات فلما لم يجبه احد ، امر رجاله باقتحام المنزل، فنجحوا في الدخول اليه بعد ساعتين ، وبعد ان ازالوا كل العقبات التي وضعها الرجلان في طريقهم ، فلم يجدوا احدا .

واستبد بهنري دي مونتمورانسي الغيظ عند هذا الفشل ، فامتطى جواده ، وتوجه توا الى اللوفر والتمس مقابلة الملك .

وفي هذه الاثناء كان بارداليان الاكبر وابنه ، وجان ولويزا ، قد ذهبوا جميعا مع فرانسوا دي مونتمورانسي الى قصره ، حيث عقدوا مجلسا تدارسوا فيه حالتهم ، قال فيه المارشال للفارسين :

ستكونان هنا في مأمن ، لان احدا لن يتبادر الى ذهنه انكما عندي .

فهز بارداليان الصغير رأسه وقال :

ـ اذا سمع المارشال نصيحتي ، فانه يحسن به مغادرة باريس ولو كان وحده لما نصحته بذلك .

فأجابه المارشال :

ـ لقد اصبت يا بني وسأبرح باريس الليلة مع ابنتي وزوجتي ، حيث نقيم في مونتمورانسي ، وسأعتمد عليكما في حراستهما هناك .

وانا واثق ان الملك نفسه لن يفر في الذهاب الى الحصن للبحث عنكما لان جيشا برمته لا يستطيع التغلب على الحصن واقتحامه .

وتم الاتفاق على السفر ليلا .

ولما خلا بارداليان الاكبر بالمارشال ادار البحث عن (لويزا) وهو يقول :

ـ ان من حق هذا الملاك ان تجد زوجا خليقا بها .

فابتسم المارشال وقال ببساطة :

ــ ان هذا الزوج موجود ، وهو الكونت دي مرجنسي •

وذعر بارداليان الاكبر حين سمع هذا الجواب ، فمن يكون الكونت دي مرجنسي هذا ، فهو لم يسمع بهذا الاسم قبل اليوم •

وغادر الغرفة دون ان يقول كلمة اخرى وذهب لابنه يخبره بما جرى بينه وبين المارشال من حديث •

فسأله وقد بدا الحزن على وجهه :

ــ اتعرف هذا الكونت يا ابي ؟

ــ ابدا ••• ولكني اعرف كونتية مارجنسي فهي مجاورة لامـلاك مونتموراسي ، وكانت قد تجزأت قطعا ، فلم يبقى منهـا غير قطعة صغيرة كانت لوالد (جان دي بيانس) حتى اغتصبهـا والد المارشال فرانسوا ، ومن يدري فقد يكون قد اشترى هذه الارض نبيـل جديد يحمـل هذا اللقب •

واخذ الاب يذرع الغرفة غاضبا حانقـا ، فلما شاهـد هدوء ولده صاح به :

ــ اتستقبل هذا الخبر بمثل هذا الجمود ؟

ــ ما الذي تريد ان افعلـه ••• اليس من حـق المارشال ان يزوج ابنته بالرجل الذي يريد ••• ومن نكون نحن حتى نطلب يد ابنته ؟

ــ حسنا ••• فلنسافر اذاً ولنغادر باريس •

ــ وكيف اغادر باريس قبل ان اطمأن الى سلامة لويزا وامها •

ــ لماذا لا تترك الكونت دي مرجنسي يحميها ويحافظ عليها ؟

ــ سوف تتعرف على هذا الكونت ، واني لن اتركها حتى تصل الى مأمنها بعد ان دعتني لحمايتها ، وكانت اول من فعل ذلك •

فقال الاب :

ــ اذكر ان هنري دي مونتمورانسي لن يتركنا وشأننا وانه سيكيد لنا ، وقد يرسل خلفنا بعض رجاله ، ولكني اعرف كثيرا من الاصدقـاء

الذين استطيع الاعتماد عليهم في مثل هذه المهمات ، وسوف اذهب الى الاجتماع بهم •

فقال الابن :

ـ اسرع يا ابي ، فاننا سنسافر في اول هذا الليل •

فلما خلا الشاب الى نفسه احس انه يكاد ينفجر من الحزن •

لقد كان يحب لويزا حبا ملك عليه كل حواسه وتفكيره ، حتى لكان يشعر احيانا ، بأنه يريد ان يبكي ، ثم لا تنجده دموعه ، فقد كان حبه منحصرا في قلبه ، لا يكاد يخرج منه الا بمقدار •••

وقد كان الى هذا شريفا نبيلا ، لا يريد بأحد شرا ، واذا بادله بعضهم شرا بخير ، اعتذر لهم ، لانه كان يعتقد ان النـاس مثله ، يكرهون الشر ويريدون الخير ، واذا فعلوا الشر فانما يفعلونه كارهين •

هذا هو الشاب الذي اعجبت به الملكة كاترين ، وهي التي لم تكن تعجب بأحد •

وهو الذي حاول كثيرون من زعمـاء هذا العهـد التفـاهم معه ، ومصادقته •

فكان يردهم واحدا بعد الآخر ، لانه كان يريد ان يكون حرا في حياته لا عبدا ، ولا تابعا •

وقرر فيما بينه وبين نفسه ••• ما دام قد قطع الامل من حبـه ، ان يعود الى باريس بعد ان يذهب بلويزا وامها الى مكان امين ، ثم يطـارد اعداءه واحدا بعد الاخر ، حتى يقتلهـم جميعا او يقتلونـه ، فينتهي من حياته ، ومن عذابه وشقائه في حبه •

انتهى هذا الكتاب

الفهرس

12